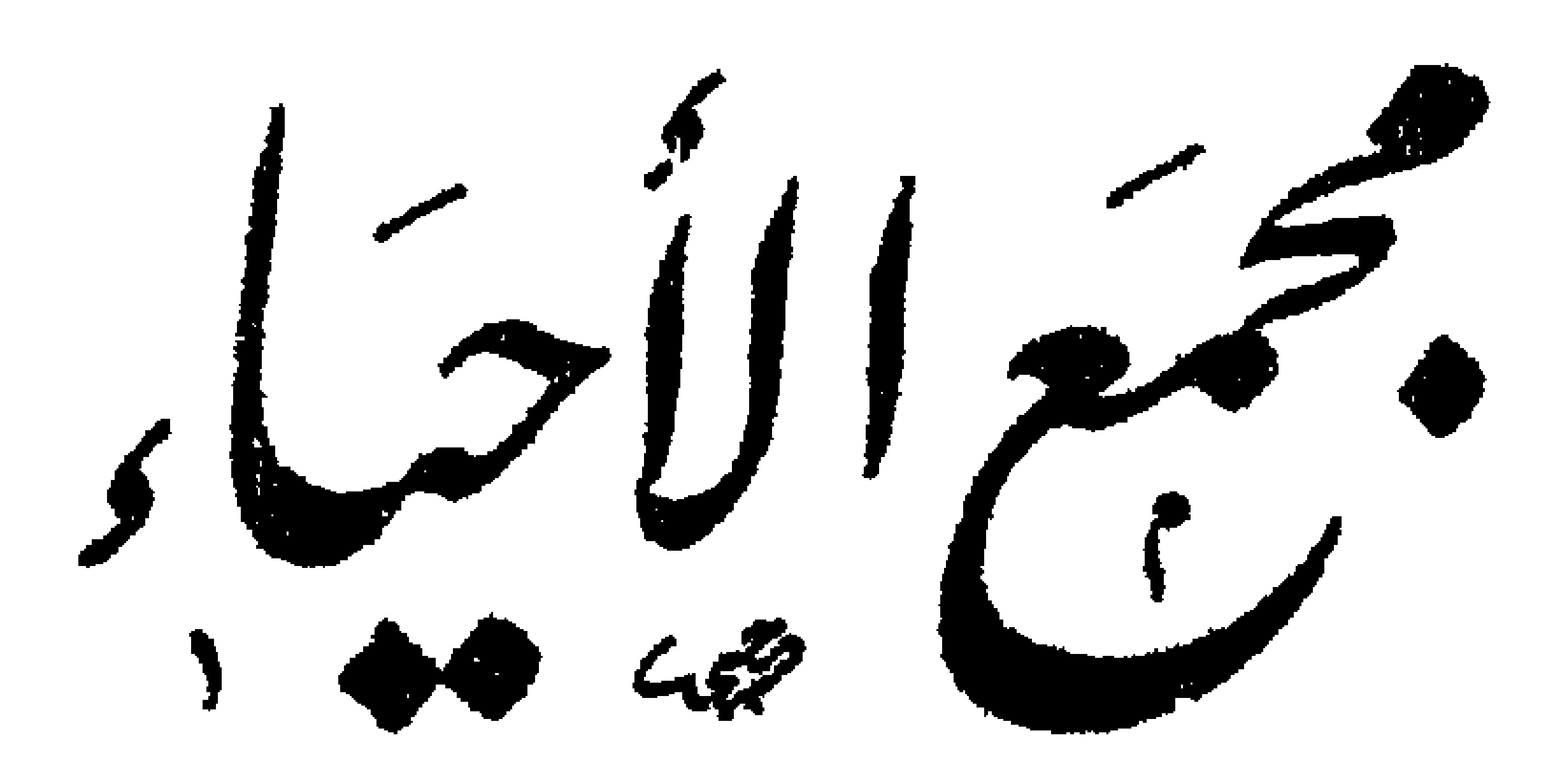


«بقلم»

عباس محمود العقاد

(الطبعة الثانية)

(المطبعة الرحمانية بمصر)

مقدمة الطبعة الثانية

« خواطر عامة »

حول موضوع الرسالة

كتبت هذه الرسالة في الصراع بين الأهواء والمبادئ واستشهدنا وجه المشكلة التي بدأ منها ونعود إليها أغلب الناس ومشاعرهم في هذه الحياة . وخلاصتها أن الخير والشر في هذه الدنيا لا ينفصلان وأن أشرف ما يعرفه الناس من الحق غيرتهم على ما يعتقدون أنه الحق ، وأن الحق الذي نعرفه ونغار عليه غير الحق الذي نتوخاه حركت الشكوك [illegible] معتمدة حقاً [illegible] أداة موصلة إلى الحق الأعمق [illegible] في عقائد الطبقات الدنيوية سليمة . ومن [illegible] إجحاف هذه العقائد وقسوتها فهي أرحم بالناس من الموت ، والموت كائن لا محالة في خلو الناس من العقائد أفراداً كانوا أو جماعات [illegible] إذا أردنا أن نعرف رحمة التقوى

المسخرة لهذا الوجود فلا نعرفها بقياس قوانينها الى القوانين
التي نتخيلها ونفترضها ونود أن نجريها في الوجود لو كان
الأمر بيدنا . ولكننا نعرف هذه الرحمة المحجوبة بشيء بين
واضح : هو اليقين بأن القانون الذي يوضع لبقاء فرد واحد
في عصر واحد غير القانون الذي يوضع لبقاء جميع الأمم في
جميع العصور . وانه لو سألنا ساخطا متمردا على الكون
أي الحكمتين أتم رحمة وأوفر خيراً : الحكمة التي تضع
القانون الأول أو الحكمة التي تضع القانون الثاني ، لما تردد
في الجواب ... [illegible] نظاما ترسمه الحكمة الخالدة
لا [illegible] أن [illegible] سعادته [illegible] قبولد اليوم ويموت
غدا [illegible] السعادة المطلقة للفرد معناها الابادة المطلقة للنوع
وليس [illegible] من حكمة تفدي الوجود الانساني قاطبة بسعادة
واحد منه . ولكن رحمة لا نعلم أي الناس أحق بظهور
[illegible] أعماله وآماله لأننا لا نعلم غايتها . واذا جهلنا هذه
الغاية فنحن لا نجهل حقيقة ثابتة مقررة لا مراء فيها ولا
جدال . وهي انه ليس في العالم فرد أو شعب مهما عظم اقتداره

واشتد سعيه وضخمت أهبته وأحكمت تدبيراته يحق له أن
يزعم انه قد صنع فى مدته الزائلة مايؤهله لأن يستوعب غاية
الكون الأبدية فى غايته الموقوته ، فاذا هو اقتدر وسعى
وتأهب ودبّر ثم كان من غاية الكون أن لاتتحقق غايته
كما يريدها ويتخيلها فكل مافى الامر ان غاية الكون
أكبر من غاية هذا الفرد أو ذاك الشعب ، ومتى تعارضت
الغايتان - ولا بد أن تتعارضا في حادثة من الحوادث —
فلا ظلم في تضحية الصغرى منهما لأجل الكبرى . بل
الظلم أن يُدرك بجهود أحد الشعوب مالا يجوز أن يُدرك
الا بجهود كافة الشعوب ماضيها وحاضرها ومستقبلها .
وقد يأسف الانسان لهذا القضاء أسفاً يقتل نفسه ويلح
على عقله ويشل حواسه وطبائعه فيقف حائرا لايدري
بم ينصح الذين يريد لهم الخير ، وقد يرى ان الشر والخير
سواء في أداء غاية الوجود وان فوز الشعب الخامل قد يفضي
الى أسباب مجده انتهاء كما تفضي اليها خيبة الشعب العامل
فكيف ينصح لهذا الشعب وذاك بالجد والعمل ولا ينصح

له بالتوانى والجمود ! : وكيف يقيس الأعمال بعضها الى بعض وليس لديه المقياس الذى تتدرب نتائج هذه الأعمال ! ! وماذا يقول وماذا يصنع وكل قول كـكل قول ، وكل صنع كـكل صنع : ! وهـذا أعظم مايبتلى به العقل من ضروب الحيرة ، وربما عاق حركته وأيأسه . ولـكن العقول الـكبيرة لا تلبث أن تنفصل من هذه الحيرة مطمئنة صافية ولن تضيرها شيئاً اذا سلم الجسم من رجة صدمتها . فتعلم ان الظلام الذى كان يغشاها ويلفها في كفن الخبل والتردد ليس هو ظلام العماية المخيمة على أعين الاقدار وانما هو ظلام ينتهى اليه كل بصر يرمي الى حدود ضاوة النور المفاضة حواله ، ويثبت عنده أن ما أعنته من الألم اللاذع انما هو ألم العجز عن استشفاف حجب المستقبل البعيد لا ألم الـكون المتخبط في فوضى ذلك المستقبل ، ويعزيه عن هـذا العجز انه لم يؤت العقل ليضبط به أعنة الحوادث ويصرف به مقادير الخلق ويسيطر على قوانين الارض والسماء ، وليس من الحرمان أن تنقصه هـذه القدرة ويعوزه الحـكم على أمور لا سلطان له

على تصاريفها . ولا يد له بتعديلها . فهو إما أن يعلمها ويقبض على أزمتها ليطمئن ويهدأ . فلعمري ما أعظم الثمن الذي يطلبه من السكون جزاء اطمئنانه وهدوئه ؛ ؛ اذ هو ثمن لا يقل عن التحكم في نظامه تحكم الارباب الخالقين — وإما أن يجهلها وهذا قصاراه ومبلغ حقه على السكون فلا يذهب به القلق وراء حده ولا يحسب أن كل مجهول فريسة الجهل وان كل مخبوء ضائع ، وان البلاء كل البلاء على من يجيئون بعده انه جهلهم ولم يشرف عليهم . ولعله بعد ذلك يرتاح الى هذا الذي كان يحيره ، ويلمح وادعى به اخذنا في جزء من العمل فيأنس فيه أثراً من اللطف بالناس ومدعاة الى التعادل بين أنصبتهم ، لأنهم لو جزموا بفوز كل متفوق في مقدرته وأهبته لما بقي لمن تسد في وجوههم أبواب التفوق أو الفوز الحوائل يوماً من الامل بينهم وبين المقدرة والأهبة سبيل الى مطمع في الحياة — على ان يأس المغبون اذا تمادى به الحزن ومن في الاستسلام ان ينفذ من ضبائه النسر بواعث الجرأة والتجديد من يضمن ذات معين التفوق في صدر

الانسان فهو من قديم الزمن ينحسر من جانب ليطغى من جانب آخر ويغيض هنا لينبع هناك . ومهما سلم لهذا المخلوق كيانه وحواؤه وأواصره التي تربطه بالمخلوقات أشباهه فينابيعه معه موفورة وافية . وأصول فيه مستقلة تامة بل معه على غير علم منه مبادئه ومصائره . وأسلافه وسلالته ، ونعيمه وعذابه ، وأصنامه وأربابه ، لا يضعفه حملها بل قويا ، ولا يتعبه احتواؤها بل ينشطه ويحييه ، وما هو بضائره ان يختال حكمه على حكمة الوجود ويكثر من التأويل في فتراض أوائله وأواخره مادام ذلك لا يخرجه من قلب هذا الوجود أو ينحيه عن مؤثراته ، فيبداه أو الوجود أي مبدأ ولينته آخره أى منتهى فانه قلبه هو قلبه وصميمه على تعاقب الازمان هو صميمه والانسان عالق بحياته في هذا الصميم لا في أوائله الازلية ولا في نهايته الابدية فهو أبدا عش أحاط به هذا لعالم وحيث غمرت لا عين أحسن أن ترى فثم شيء لها تراه ، وأين وجدت نفس تحسن أن تدرك فثم حقائق أمامها تدركها . وإن تنشأ حاجة من حاجات النفس وهذه الموارد

باقيـة . اللهم الا تلك الحاجة المحكوم عليها بالظمأ الأبدي ، والتي تموت ان رويت : وهي الحاجة الى الكمال ، وبها تتم الحاجات جميعاً ، ومن قبلها يجذبنا زمام الغيب القدير — هذه ينابيع الانسان التي نعول عليها . كلما أضاع أملا أخرجت له أملا جديدا . وكأنها خزانة الجدة العجوز تتربص بالابناء المسرفين حتى ينفدوا ويضيقوا ذرعا فتفرج أزمتهم ، وتسري عنهم وتزودهم بالبقية المخزونة لهم . وهذه الجدة العجوز لا تمنيك بأمل وعندك أمل تخلفه ولا تفتح لك بابها وأمامك باب سواه ، وربما أقنعتك في كل مرة بأنك تحرز الأمل الأخير فلا تكاد تصدق حتى يتبين لك انها خزانة لا تنفد . وكنز ذو أوان يتأتى يتجدد ولا تبدد »

في هذا المعنى وما ذهب مذهبه كتبت هذه اليومية

ولم أزل منذ دارت في نفسي هذه الخواطر ... وحدة هي أكبر ما يريده الناس ... نظام السكون وهي ... ذلك أهون نحيح ... بالانا . وتلك الحدة هي ... بين ... جزء ... خلاف ... السلم به في

عرفهم . فهم يقولون : أما كان العدل يقضي بالتسوية بين الناس في منازلهم وحظوظهم ، أليس من الغبن أن يحتضر الشاب ويؤخر الهرم ، وأن يحرم العامل ويغدق على العاجز وأن يرتع الوضيع ويبتذل الكريم . وان كان هذا مراد الاقدار فما كان في وسعها أن ترضي كل مخلوق بنصابه وتغني كل طالب عما ليس في يده . وازدادت هذه الشكوى بعد الحرب الكبرى فسمعت في كل مكان وكان لها فعل عجيب في تغيير الاحوال . وستسمع في كل حين [illegible] أقوى دوافع [illegible] الا [illegible] يداخلهم الريب في [illegible] الشاكية [illegible] أيه [illegible] في حياتي [illegible] يريد أن [illegible] حولت به الصروف [illegible] الآمال .

يشكون من تفاوت الاعمار والحظوظ وهم اذا اعجبهم
من الرجل شجاعته وهمته وجوده لان الاعمار مجهولة ولن
يكون لرجل على رجل فضل بشجاعة أو همة أو جود
لو زالت المخاطر من الدنيا وتساوى الناس في الآجل أو
أمنوا الموت الا في وقت معلوم فاذا أمن الشيب والشبان
فهل يرضيهم هذ العدل الذي لا تعيش معه فضيلة ، والذي
يجعل الانسان أشبه بالآلة منه بالنفس الحية فيفقد مزايا
البأس والذكاء والاريحية والمروءة : لا تعدو الآلة حد السيد
ولا المسود ولا حد المحسود ولا تستطيع أن تنوع
صناعاتها أو تتعدد خصال وأعمال أو تتنوع أجناس وأديان
وأي دنيا تكون هذه وأي حياة اذ هي تكون لو استند
اليهم أمرها يكون الحروف في تصور الحياة غير مبتهجة ولا تسود
قبل أن يؤنسوه لانهم يحسبون ان الحياة حين يجعل
أجزائه لمتهم من اجزائه الاخرى كذلك شحيحة على نقصه
في مجموعه فترهم ينكرون الفوضى والفوضى ما يطلبونه
ويريدون العدل والعدل ما يتبرمون به . فكيف يكون

العدل فى غير نظام وكيف يكون النظام في غير اختلاف ؟؟ أليس قضاء على الكون بالعدم ألا يختلف جزء منه عن جزء في شيء من الاشياء ؛ ؟ ثم أليس من الجور والخلل أن تتفاوت أجزاؤه فى خصائصها وصفاتها وتتساوى فى أعمالها ومزاياها ؛ ومتى علمنا هذا فلنعلم أن من تمام هـذا العدل فى هذا النظام أن يسلب الناس الرضى به كما سلبوا التساوي فيه . لأن الرضى عائد بهم الى التساوي ، والتساوي عائد بهم الى الفناء . ولن يرضى الناس الا كرهوا التحول وكفوا عن العمل وان يكف الناس عن العمـل الا تلفوا واضمحلوا .

ولنعلم كذلك ان سلامة الاشرار وسوء عقبي الاخيار بعض الاحيان هى قوام الخير في هذه الحياة وإلا فكيف يكون في الاخلاق فضيلة ورذيلة اذا تحقق جزاؤهما فى كل عمـل وفى كل يوم ، وأي فضيلة هـذه التى يحملها صاحبها أولا فأولا لينال ثوابها كما يحمل الاجير دفتره يوما فيوما وهو على ثقة من قبض أجرته ، أوليس جديرا بالنـاس اذن أن يحمدوا هـذا الخلاف ، وان كانت طبائعهم لتتألم منـه على

رغمها ؟؟ وأن يزداد حمدهم له متى علموا أن هذا الالم هو بغية تطلب لذاتها لا عرض يأتي في طريق ذلك الخلاف المحمود ؟

ولست أقول ان هذا الالم قربان على مذبح غرض أسمى من الحياة ولكني أقول انه قربان الفرد للنوع في سبيل الحياة نفسها . وقد يترقى النوع بهذا القربان أو يقتصر الامر فيه على التجدد المتكرر ولكن الحياة وحدها كافية لمن يحيا ولو لم يتحقق بعدها الكمال المنشود . . . أنظروا الى الفرق الذى لا حد له بين العدم والوجود ؛ ثم انظروا الى الفرق الذي لا يحاط به بين الوجود المجرد والحياة الشاعرة الناطقة . أنظروا الى هذا الفرق ما مسافته من الزمان وما عمقه من الاحساس والادراك وما حده من الجمال واذكروا انكم تتمتعون في كل لحظة من لحظات عمركم بالفرق السحيق بين العدم والحياة . . . أذكروا أن روح الوجود تثب فيكم في كل لحظة من تلكم اللحظات من هاوية العدم الى قلب الدنيا النابض الجياش : ويالها من وثبة . . . ما أعظمها وأجملها وما أكبر فرح النفس بها ! : : واذكروا ان أحقر عمل

يأتي به المرء في حياته بينه وبين العدم مسافة لا تُعبَر وأن
من جلائل أعمال الحياة ما يجعل الحياة الحقيرة كالعدم فترى
أن الموت أهون عليه من فقده . ولعل أضعف ممن يحتقر
الحياة [illegible] بعضها وتلك الذين يجعلون بعض الحياة غرضا
لكلها . أولئك الذين يحسبون انهم اذا قالوا ان غرض الحياة
اللذة أو السعادة أو القوة كانوا أبعد عن الهذر ممن يقول ان
الغرض من النبات امتصاص زبدة الطين أو اجتذاب ألوان
النور . الذين يزعمون انهم اذ فرقوا بين حياة مرضية في
نظرهم وحياة أخرى غير مرضية لا يطالبون بالفرق بين
[illegible] هؤلاء ضحايا الايثار بالحياة لانهم يتجاوزون
عن [illegible] بعض [illegible] في ذلك من المختلفين على الغرض
من [illegible] بحرفة وانه تارة أنه [illegible] وتارة
[illegible] خفيف [illegible] وتارة انه النيرات والرياح
و [illegible] ونارة أنه نقل الساكن عليه والحقيقة
بمعزل عن كل [illegible] بجملة هذه الاغراض
[illegible] وكذلك الحياة لا تحصر أغراضها ولا تدفع

بنا الى الاغراض التى نفهمها عقولنا فمن أراد أن يفهم غرضها فليسألها تجبه في نفسه لان السائل هو الجواب بل هو كلمة من لغتها المكتوبة الناطقة بغرضها وعلى قدر ما في هذه الكلمة من المعنى يكون حظ السائل من فهم جواب الحياة

فانفهمها بلغتها ولا نحاول التعبير عنها بلغتنا . وأقرب ما نشبه به تلك اللغة المبدعة انها وحي ناطق بالمجاز كامن فى العقول والقلوب والارواح والحواس تكتبه بطريقة تصويرية كطريقة المعبرين عن المعانى برموز الكتابة المصورة . فتنبت شجرة لتقول النضرة والنماء ، وتنشىء ربيعاً لتقول الحب والرواء ، وتسعر حرباً لتقول التنازع على البقاء ، بل تبدع كوناً لتقول الله والسماء . أو هي تدور ولا تقف ونحن نقسر ولا نقرأ . وقد صورت خلائقها صورة واحدة في كتاب واحد نحن حروفه وكلماته وأرقامه فلا نحاول أن نكون قارئين محيطين بهذا الكتاب وحسبنا منه ما ننطوي عليه من مغزاه

***

ولقد كان تأليف هذه الرسالة وطبعها في إبان الحرب الكبرى : تلك الحرب التي بلغ فيها الصراع بين المبادىء والاهواء مالا يبلغه في حروب العالم قديمها وحديثها . فبعثت مخاوف القرون الأولى في نفوس الناس وقامت دعاتها كأنها اعتزمت أن تنشئها نشأة جديدة ، فشككت قوما كانوا يؤمنون وجذبت الى الايمان قوما كانوا يشكون أو ينكرون . وخيل الى الناس انها الوقعة الفاصلة بين الحق والباطل لا تقوم للمقهور منها قائمة بعدها . وربما كانت هواجس هذه الايام حركتني الى استعراض الخواطر التي كانت تدور بذهني من قبل ثم الى تدوينها في هذه الرسالة —

والآن وقد انتهت الحرب نهايتها وجاءت بما في الحسبان وما ليس في الحسبان أراني لا أجد في أسبابها أو أدوارها أو نتائجها تفسيراً جديداً للمنازعات بين الناس فالحريق هو الحريق نار دينية ، وزعود النقاب ونظام المجموعة الشمسية يستمد ذلك من مصدر واحد . وقد تلخص

كل ماصنعته الحرب في جملة وجيزة : وهي انها عجلت التدرج القديم المطرد في نقل الحكم من أيدي الأقلين الى أيدي الأكثرين ، وسوف يكون لذلك شأن خطير في تصريف أعمال الامم وضبط معاملاتها وعلاقاتها . إذ من البديهي ان الفرق بعيد بين حكومة لاتحتمل خطراً كبيرا أو صغيرا مما تحتمه مطالب الأكثرين ممن تلحق بهم مغبته ، وحكومة أخرى من الحكومات المعهودة تحتمل كل الاخطار ارضاء للافراد المعدودين من المتربعين في دسوتها

ولا أزال أعتقد بعد الحرب كما كنت أعتقد قبلها ان الغيرة على الحق هي روح الانسانية أو هي مظهر أنانيتها وحب البقاء فيها . فاذا هي رضيت للامة أن تستنزف موارد الأمم بغير الحق ثم اطمأنت الى هذه الحالة فقد آذن ذلك بالانحلال . وكان منها بمثابة ضعف الروح الحيوية في الأمة وضعف الحيوية في الفرد . و[illegible] الفناء

وأختم هذه المقدمة كما ختمت الرسالة ١٩١٤ : اسمعوا صوت الضحية : اسمعوه همساً قبل أن تضطركم الى سماعه

زمجرة ووعيدا . ويسمعه كل حي على شاكلته : يسمعه الشرير فيتمادى في شره وتسمعه الأمة فتنقض على ذلك الشرير . وتسمعه الانسانية فتنحى على الامة التي تفرط في حقوق الحياة . أو التي تمسخ عناصرها الباقية في الامم ايثارا لعناصرها المحدودة . ومادام هذا الصوت مسموع النداء . فالعالم الانساني محدود البقاء ؟

القاهرة في ٨ يناير سنة ١٩٢٠

عباس محمود العقاد

الغــاب

أين أنا ؟؟ وماذا أرى ؟؟ ومن ذا جاء بي الى هنا .. ويقظة هذه أم حلم في الـكرى .. أم جاءبي الى هذه الارض النائية متصرف فعال لما يريد أحب أن ينزل في روعي أن ليس كل ما في الدنيا قصورا باذخة ، وأرائك شامخة ، ومعامل وأسواقا، ومحابر وأوراقا . ومحافل وجحافل، ومساهر ومساخر، ودرهما وديناراً . وفضة ونضارا ، وان المرء قد يحيا حفل حياته وينظر مدى عينيه ويسمع ملء أذنيه ويحب ويبغض ملء قلبه وينتعش وسع نفسه وهو لم يعطف على لنـدن ونيويورك أو يسمع ببابل وبغداد ولم يقرأ فلسفة ارسطو وسبنسر أو يطرق أذنه اسم هومر وسكسبير وانه يقصـد كل القصد في انفاق ساعاته وهو لم يركب البخار ولا طار في الهواء ولم يستخدم النار ولا سخر الـكهرباء. فهل هذه ارادة ذلك المتصرف الفعال لما يريد ؟؟ وهل أفلح فيما أراد ؟؟

* * *

أنا الآن في قلب أفريقيــة ، والذى أراه حيالى غاب

أشجارها باسقات تطاول السحاب من أمم وجذورها غائرات
تذهب في طباق الارض ذهابها في القدم . يلجأ اليها الهواء
فكأنه لاجيء الى حصن ، ويقع عليها الضياء فلا ينفذ الا باذن
اشتبكت أعاليها فكأنها السقوف ، وهالت مداخلها فتقول
هي سراديب أو كهوف ، ظلالها أثبت على أديم الغبراء من
أصباغ الفراعنة القدماء ، لا تنسخها الشمس الساطعة ولا القمر
الزاهر — وأصولها أعمق في قرار الارض من قبر آدم
وحواء ، لا يلحقها ظن الفاحص ولا يتعلق بها وهم الحافر .
وفيها من الاحياء ما لا يوجد في أعمر الحواضر عداده
ولا أتى في طول الزمن مداده . كواسر صارخة
[illegible] زاحفة أو طائرة ،
[illegible] ضرب كل منها [illegible]
[illegible] لا تعبأ
[illegible] فنيلا [illegible]
[illegible] على الشمس
[illegible]

هي باشجارها وأزهارها وأمواهها وثمارها جنة منوحشة متأبدة تأوى صنوف الحيوان وتأنف أن تكون لهوا ونزهة ابني الانسان

أوغلت فيها وبي من حب الاستكشاف فوق ما بي من محاذرة الخطر فما توسطت رحبتها حتي لاحت لي على بعد امرأة جليلة الهيأة شريفة الطلعة فدنوت منها فلم أكد أصدق ما أرى — رأيتها مفتوحة العينين لكنها ضريرة لا تبصر ولا تحيد. وتمثلت لي وقد أخذ عينيها تأثير خفي يبينه النظر بعد التأمل المضجر والنفرس الشديد . فدهشني حالها واختبأت أنظر ما شأن تلك المرأة في هذه البقعة. اذ هي تقول بصوت جهير مطال .

سلاما يا سكنى غاب [illegible]

[illegible]

[illegible] !

[illegible] غاب [illegible]

[illegible]

جناحين أو يزحف على بطنه . أو يتلوى على نفسه . اقداراً متفاوته وأشكالا متباينة وألوانا متنافرة . من حيوانات واناسي ، فيهم الشمالي والجنوبي ، والشرقي والغربي . وكلهم ينسلون صوب ذلك النداء . نداء الحياة المطاع

فلما عدت الى المرآة الماثلة امامي هي الحياة : الحياة التي يعبدها الناسك في الصومعة والعربيد في الحانة ، الحياة التي تحبها الدودة المتقلبة في الاقذار والشاعر العارج في ملكوت الخواطر والافكار . الحياة التي يضن بها الطفل ابن ساعة والشيخ ابن مائة وعشرين حجة ، الحياة التي لا شبيه لها في الكون ولا نظير . تقدمت أنا امامها فلا أكذبك أيها القارى اني وجدت بها شمات ومعائب كثيرة لا تبدو لاول نظرة ، ووجدتها تمود تلك الشيات والمعائب خفية وجهرة . وكأني نظرت على صدرها تميمة من تمائم سحر أضنها لبستها لتغرم الانظار بها . وتعمى القلوب عما لا يستحسن منها . ولكن محاسنها مع هذا معان ما كرة يفتتن بها عاشقوها وهم أبناؤها — مهما خدعتهم وعذبتهم وعبثت بهم . فلو

سألت ايا كان في ذلك الحشد المختلط اتقال الك انها فتانة القبح والجمال، قتالة الصد والمطال . هذا وهى مالاحت قط لواحد منهم كما تلوح لجاره ، ولا ظهرت لاحدهم في زى واحد بين ليله ونهاره .

وقفت تلك المرأة العمياء المقودة بيد القدر وقد لزم كل مقامه وأنشأت تقول . —

خطاب الحياة

أتدرون يابنى لم دعوتكم ؟. دعوتكم لما شجرت بينكم شواجر البغضاء وتقطعت بكم أسباب الرحم فعدا بعضكم على بعض وأصبح الحى منكم ينظر الى سائر الاحياء كأنه الحى وحده وهي أحجار صماء لا شعور لها ولا رغبة في البقاء عندها أو هو لا يعرف فيها الحياة الا بقدر ما يستخدمه . و يعيب من المادة الجامدة نسرته

هذا وانتم جميعا ابنائى ارضعتكم لبانى وسرت في عروقكم دمائى . . . . عن . . . جعلتكم جندا الى . . . اعدائى . يؤلمنى الا . . في صغركم . . . . يؤذى في . . . .

واعالج من الاوجاع والحسرات لمفارقة الجثة الناقصة الدقيقة ما اعالجه لمفارقة البنية التامة القوية

[illegible] تباين خلقكم وتعدد سماتكم وسحنكم فانتم انكم [illegible] ونير مبدد لا نفيئون الى أصل ولا تنتقون عند غاية . فهل [illegible] ان [illegible] لاحياء تسالكم . وان الموت عدو لكم [illegible] جنوده وعناصره في هذا الكون وحده ..

فابوه جمعكم في هذه الغاب ليمشي بعضكم الى بعض [illegible] فتعتصموا به [illegible] فيما بينكم وأورع بعضكم [illegible] ذلك أول لكم من هذه [illegible] لي شقت [illegible] بكم وتبرت بعضكم أيتمنى لو أنه [illegible] ويسب الحياة لعنة عليه وعلى [illegible] جميعا

[illegible] جميعا [illegible] ما أوحي [illegible] به [illegible] . [illegible] لا [illegible] بعضكم بعضا ولا يحي أحدكم سريرة [illegible] بالغيب وأخذا بالظن . فليكن لكم ما دمتم في هذا [illegible] الانسان [illegible] والشرب أرواحكم

فنونه وتواريخه وأديانه . تتعاونون بهما على التفاهم والابانة عما في سرائركم : أما طباعكم فحافظوا عليها جد المحافظة فانها دليلكم فيما سينطق به كل منكم عن رغبته وفكره ، والمعالم التي تميز بين أحدكم وغيره . وهي قوام أنفسكم وملاك وجودكم ، وليس التجاوز عن هذه المعالم بأسهل علي أو عليكم من التجاوز عن الحياة

فابدأوا باسم الخلاق الحكيم . وتكلموا بالتمامة فانك رمز السلم والسلامة . قرن الله بهما عملكم وأظل بهما في التفرق والاجتماع شملكم

فجأروا بلغة واحدة وصوت واحد بين زئير الاسد وصرير الجندب : آمين آمين

. . .

وقبل أن نبدأ الجمعية خطبها ظرت [illegible] ما حوته غرب من تلك الوجوه [illegible] من ما توسمت العقل والمعرفة والتؤدة في الانسي منهم وارحوني . فقلت تالله لقد أخطأت الخيال فاني لا أرى هنا الا خالقاً واحداً . [illegible] أن هذه

دواب فى أشكال الاناسى وهذى أناسى فى أشكال الدواب!!

***

ثم صعدت اليمامة على ذؤابة شجرة عالية وهتفت قائلة : ـ

.. ..

خطاب اليمامة

معشر الاحياء

قال تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض » ومصداق هذه الآية الكريمة يأبى أن [illegible] في ملك [illegible] ذهبتم بأبصاركم. فقلبوا الطرف فيما حولكم هل ترون [illegible] أكثر أم البواشق والنسور، وهل البقر [illegible] على القتل والذبح أم الاسود والنمور، وهل [illegible] أكثر أم التماسيح والحيتان، وهل

أنواع الحيوان أجمّ وأنمى أم قبائل الانسان ؟

فان تبينتم ـ ولا بد ان تتبينوا ـ ان الكثرة في جانب الضعف فتدبروا ذلك تعلموا ان الله لم يخلق المخلوقات المستضعفة عبثاً وانه لم يقدر عليها الفناء مذ خلقها ضعيفة كما يفترى أولاة الشر ومستحلو دم البرىء. بل وهبها من ارادة البقاء ما وهب عامة الاحياء، وتمت فيها هذه الارادة بالكثرة كما تمت في سواها بالقوة . فالجناية عليها جناية على ارادة البقاء ، والسطو على حياتها اتجار في صورة اعتداء

ولقد سمعتم أمنا الرؤم تناديكم قائلة لكم : أنها رضعتنا جميعاً من لبانها وانه اذا نسب الابناء فكلنا بضعة من جثمانها وانها تتألم في أصغر حي اذا مسه الأذى ، ويشق عليها أن تخرج منه ليستولى عليه العدم . وقالت لكم اذا أخذكم الحي أخذ الجماد الذى لا يحفل حالة من حالاته مضيعاً معنى الحياة حاط من شرفها . فميزوا بين السادة الصماء واخوانكم في رغبة البقاء

ان بعضكم ليقاق أشداء ابوة ساعة في هو لا ...

يساق اليه حيوان ساع نام فينقض عليه فيزهق روحه لينال منه ملء فمه لحماً ثم يتركه جيفة لا حراك بها . وليت هذه الأكلة تغنيه عن الطعام بعدها ، ولكنه يفعل ذلك كلما جاع ، ويجوع في اليوم مرات . فمن أجل شبع ساعة تسلبون حياة هي كل ما تملك صاحبها من الوجود . أليس هذا أقصى ما تنتهي اليه عبادة الغرض وتحكم الشراهة ؟ ؟

ولا يتورع متهكم منكم : اشد ما تغار اليمامة على تأييد فلسفة الرحمة بينها . لو خلقت نسراً أو أسداً أيكون هذا رأيك وهذه غيرتك . فأقول لهذا المتهكم : انني لا أدري ماذا يصيبني من رأيي لو كنت خلقت نسراً أو أسداً . على أن الذي أتحققه الآن . أؤكده انه لا نسور الذرى ولا ليوث الشرى ينبغي لها أن تترفع عن فلسفة الرحمة . اذ ليس من قوي بئيس فيكم لا وثمة من هو أقدر منه وأشد بأساً . وليس من غالب بقوته اليوم الا وهو مغلوب بها غداً ، وهب موت انتم . بل أحدكم وأجنحة له الحول والحيلة فهل تطيب نفسه أماناً على نفسه أن لا تقبره الكثرة أو المكيدة

يوماً فلا ترى فيه عهداً لاحسان ولا ذماما لحق ؛ وتذره ينادى العدل فلا يجده ، ويناشد قاهريه الذمة فلا تجده : فاذا نسى الرحمة وهو قادر عليها فبأى وجه يذكّر بها سواه وهو محتاج اليهـا ؛

أنا انمـا أدعوكم الى دين سواء بينكم يرضيكم جميعاً ولا يظلم منكم أحداً . دين يحوطكم بحارس من العـدل والحق ويرصد عليكم وازعا من الواجب والضمير . فان صدكم حارس العدل أو وازع الضمير مرة عن أعدائكم صدهم ألف مرة عنكم ؛ والعاقل من لم يغتر بيومه وتدبر عواقب أمره ؛ ولأن تسمعوا هذا الهتاف منى أجمل بكم من أن تسمعوه من الضرورة القاسرة وأنتم بحكمها عاملون .

ولما سكتت اليمامة كان وقع كلامها مختلفاً بين خشوع وموافقة واستهجان وسخر وجمود . ولم تطل هذه الحال الا ريثما وثب الثعلب قائلا . —

خطاب الثعلب

معشر الاحياء

أنا لا أجهل أن بينكم كثيراً يبغضونني [illegible] والخسة فمن خطر له من هؤلاء أن يشك فيما سأقوله الساعة فليفعل فاني لا أحاول تبرئة نفسي .

وعظتكم اليمامة وأوصتكم بالضعفاء وقالت لكم ان الله بارك في مخلوقاته الضعيفة ليحرم عليكم قتلها . أما أنا فأسلوبي في الوعظ غير هذا الاسلوب وطريقتي في المنطق خلاف هذه الطريقة . أقول لكم ان الله أكثر من مخلوقاته الضعيفة لأنه يسر على أكثرها الفناء في هذا المعترك العصيب . فإن رغبتم في المزيد فهو ما أقول :

ان شئتم أن تسنى أحوالكم ويهدأ بالكم ويعرف كل منكم [illegible] من [illegible] هذه الكلمات الفارغة : [illegible] . فانها أوهام ينبغي الجهود

وراءها هدراً ، وعلالات تخدع أصحابها ولا ترد عنهم ضرراً

فما دام في الدنيا القوى والضعيف ، ومادامت المساواة مستحيلة حتى بين الفردين من جنس واحد والاخوين من نبعة واحدة فلا عدل

وما دام الجهل يغطي على أبصار الجاهلين والخوف والضرورة تلجمان أفواه العارفين والامر يحسن اليوم ويقبح غداً فلا حق

وما دامت البرية تحيا بالاهواء وتموت طائعة بموتها ، والغاية من الوجود مستورة عنا ، والطبيعة لا تكشف لنا بواطنها القصوى فلا واجب

وما دام العدل مستحيلا والحق معدوما والواجب مجهولا فلا ضمير

فاطرحوا عنكم هذه الترهات التي ما أظن مخترع الغول والعنقاء والشيطان أوسع من مخترعها خيالا أو أقدر منه على تمثيل المعدوم وتصوير شيء من لا شيء

أطلقوا القيود عن غرائزكم المستقرة في فطرتكم فهي

أفضل من هذه الفضائل التي لا ترجع من طبائع النفوس عاليها وسافلها الى أساس مكين

انكم تذمون الحسد وهو الحافز الكمال والمرغب في المزيد وهل كان امتعاض الحي من ان يسبقه سابق الا صورة أخرى لبغض النفس وحب الكمال ولعمري كيف كان الخلق يتزاحمون على التقدم ان كان أحدهم لا يسوءه ان يتقدم عليه سواه ولا يشعر من نفسه بالكراهة له والنقمة عليه. ولا أكثر يقوم مما قيل في ذم الحسد. فلو كانت خلة من الخلال يستدل على شيوعها أو ندرتها بما يقال فيها مدحاً أو ذماً لكان حري بحسبه ان لا يوجد في صدر مخلوق. لكنني أراه عميق المنابت في طبع [illegible]. وما كل [illegible] ذميمة [illegible] قدر [illegible] واقرار [illegible] أن يودع [illegible] من منافع ترجع [illegible]

وأنتم تنكرون البغض وهو مسبار المقاومة وعنوان مناعة الحوزة وسياج النفس من أعدائها . فمن لم يبغض عدوه لم يحبب نفسه ولم يحم حوزته ومن لم يحبب نفسه ويحم حوزته فهو جدير بالفناء

وأنتم تعافون النفاق والنفاق ديدن الطبيعة والتلون قانونها الذي لا تستحي منه . ولو لم يكن النفاق أصلا من أصول الطبيعة لما كانت جلود حيوانات تتلون بألوان الأشياء التي تكتنفها لتخدع فريستها أو مفترسها . بل لما زينت الطبيعة صغار الذكور والاناث ليخدع بعضهم بجمال بعض فيندفعوا جميعا في قضاء غرضها ولا غرض لهم منه . ولما حببت الآباء في الأبناء ليدوم النوع ولا أرب لأنفسهم في دوامه . بل لما كان لكل مخلوق من يحميه ويغار لخلفه ومن كان لكل أمة سياسة خارجية وسياسية داخلية .

وأعذ من هذا أن الوجود [illegible] وجوه وجه [illegible] ينكشف لأولهم [illegible] [illegible]
عنه وجه [illegible]

النفاق القريبة ولكني ناظر الي النتائج البعيدة التي نجهلها نحن وتعلمها القدرة التي تسخرنا فيما تريد . فنحن نحب أحيانا ان نخدع غيرنا بلا سبب نعرفه. وان نستر الحقيقة بلا موجب لكتمانها . ولو كان مدار الامر على فائدتنا القريبة التي نعرفها ونسعي اليها لما خفي عنا كنهها. والحقيقة اننا نفعل ذلك مسوقين مرغمين . وليس من شأننا معرفة أسباب ذلك النفاق وانما هو شأن تلك القدرة العالية وحدها

وأنتم تستنكفون من الملق والدهان فهلا ذكرتم ان من لم يعرف قدرته فهو الغبي الجاهل وأن من عرف قدرته فصادم بها من هم أعلى منه يدا فهو الطائش المغرور المستحق لجزاء الطائشين المغرورين . وان من يتملق اليوم عدوه قد يتحكم به غدا ولكن من يعاند القادرين يموت فلا هو قضي اربه ولا هو أبقى على نفسه .

وأنتم تمقتون الكبرياء ومن لم يمقتها منكم مقتموه . وهذ وايم الله من ظلم الضعفاء لان الكبرياء حق الكبير والادلال بالمقدرة مزية القادر على العاجز . والقوى على

للضعيف ، لو حرمناه اياها لظلمناه وجعلناه كالضعيف فلحقت القدرة بالعجز والقوة بالضعف ورغبت النفوس عن موضع الفاضل الى موضع المفضول وجنحت عن البطش والجبروت الى الضؤلة والاستكانة . ولعمري ان تباهي العظيم بعظمته لامر طبيعي معقول ولكن الامر المستهجن المقبوح هو أنفة الصغير من الاقرار بتفوق الكبير عليه كأنه يريد أن لا يحس الكبير بكبره لا لشيء إلا أنه يحس بصغره ازاءه . وهذا عين الظلم والافتئات (تصفيق من جانب الاسد)

وأنتم تحنقون على الانانية ولولا الانانية لكنتم الآن في خبر كان ولا نقرض الاحياء وفاز الموت على الحياة في هذه الارض . ان الخالق لم يودع الحياة في نفوسنا لنبغضها ونخجل من حبها ونعزوها عنا لأول من يطلبها منا . كلا بل أودعت فينا الحياة لنفتتن بها ونتفانى في حفظها ونحتجن لها كل ما حولها ونطبع صورتها على البعيد والقريب منا . والظافر الظافر من غلبت أنانيته على كل أنانية وانطبع أثره على كل موجود . فان الوجود لا يقوم بقولي أن غيري أحق بالخير

منى بل هو فانهم باعتقاد كل أنه أحق بالخير من الخالق قاطبة .
ومتى أصبح كل حي ينبذ عنه الحياة ليأخذها غيره فمن هو
اذن الذي يعيش ويحيا . وعلى أننا لو فرضنا على المخلوقات
ان تتخلى عن الخير لغيرها . فما هي في الواقع الا أنانية مقلوبة
تمشي على رأسها وكأننا جعلنا كل مخلوق ينتظر الخير من
غيره لنفسه . فأي شيء صنعنا ؟؟ وماذا غيرنا من طبيعة
الأنانية .

وأنتم تتذمرون من القسوة والاعتداء لأنكم متشبثون
بحياتكم ولو أنصفتم الذي المعتدى لعرفتم عذره . فانه هو
أيضا يحب أن يحيا كما ينبغي له . واذا كان خوف القسوة
والاعتداء من لوازم حياة عند الضعفاء فلا حياة بغيرهما
عند ذوات القوة . وان شيء جعله قادراً على الفتك بغيره
هو حق صرف بذاته وحياته ذاتها حتما لا منازع فيه .
وما قتل سارق مغترب لا الذي وهبه الحياة وأعجزه عن
يرد عيشة المعتدين

وأنتم تشمئزون من السرقة ولكنكم تظلمون

الاغتيال . اذا تسور لص في ظلام الليل بيتا فأمسكتموه على هذه الحالة فضحتموه وشهرتم به فكأنكم تحقرونه لاعتقاده أنه يأتي عملا حقيرا يجب اخفاؤه ـ فاذا سرق فرد أمة أكبرتم دهاءه وأجللتم جنايته وذكاءه . واذا سطا رجل على شعب سجدتم لهيبته وتمسحتم بأذياله فكأنكم لا تستطيعون أن تحتقروا الا من يبالي باحتقاركم واحترامكم وأما من يحتقركم ويستعبدكم فأنتم وأموالكم طوع يديه ورهن أمره . ولست ألومكم على ذلك فهذا هو الحق عندي اذ من شأن الحقير أن يشعر بحقارة كل عمل يأتيه لانه لا يحق له احراز ما عنده بالسلب من غيره . وأما العاتي المتجبر فليس يصدر منه عمل حقير لان من شأنه أن يأمر ويتغلب على من لا يستطيع رد أمره والغضب عليه فهو لا يشعر بخجل من انتهاب غيره بل يدع المنهوب يختبئ من نفسه ويتوارى عن الانظار . أما هو فيرفع رأسه ويتمتع بأمنه على الراضين والمنكرين بلا حياء ولا مبالاة . وانكم ما اتفقتم على ان يكون لكل منكم ملكه لا يعدو عليه

أحد ولا يشاركه فيه غاصب الا لانكم وجدتم في ذلك مصلحتكم . فما هي حجتكم على من لا يجد مصلحته فى قبول هذه الشريعة . أو على الذين يرون انكم ظلمتموهم بسماحكم لمن هم أقل منهم استحقاقا وأحط فكراً بان يكونوا أوفر حظاً وأجل قدرا .. أما والله ان العدل ليقضي بان لا تلزموهم شريعتكم ونتركوهم يدينون بما يرون فيه مصلحتهم. بيد انكم لا تقضون بالعدل بل تقضون بالغلبة . أنتم تجبرونهم على الاذعان لشريعتكم لانكم أكثر منهم عددا وليس لانهم يتمسكون بمبدأ في التماس الرزق والقوة يخالف مبادئكم . فما من حجة لكم أو لهم الا المصلحة دون سواها

وأنتم تستقبحون الغدر فهل قام أمر خطير قط الا بـ[illegible] غدر . ومن كان يطمح الى المراتب التي يكثر حولها [illegible] ويتطلع دون [illegible] ويقف [illegible] المطامع [illegible] بين [illegible] وكان شكيمة يجرؤ على اظهار ما يضمر [illegible] يعلم . ومن كان يرغب في التسلط [illegible] فكيف يتقت

الى محاسنهم وحدها ويغفل عن خبائثهم فلا يعبأ بها ؟؟ أليس هذا من الحمق والغفلة ؟؟ سلوا الشيوخ وذوى التجارب الذين طال تمرسهم بالاهوال والمصائب وحفيت أقدامهم سعيا وراء الآمال والرغائب : كم غدروا ونكثوا وظلموا وكذبوا مكرهين أو طائعين لاجل أمل صغير أو خوفا من ضرر يسير . فما بالكم بمن يتصدى لاعظم الاوطار ويتعرض لاهول الاخطار ، ولا أقصر القول على الشيوخ لان الشبان لا يغدرون ولا ينكثون ولا يظلمون ولا يكذبون بل لان هؤلاء يأتون وهم جاهلون ما يفعلون . وهم يسمون الاشياء بغير أسمائها ويأتون الامور من غير أبوابها . فان كان فيهم من هو أطهر من الشيوخ قلبا وأصدق لسانا فذلك لانهم لم يخوضوا غمرات الدنيا ولم يجرعوا مرارتها ولم يطأطئوا رؤوسهم لضرورتها التى لا تقبل عذرا ولا تسمع لضمير ولا لاخلاق صوتا . ولو علموا كما يعلم الشيوخ انهم قد يقدمون على عمل لا وجه له الا ضرورتين أو أكثر لكان الشبان كالشيوخ والشيوخ كالشبان

وأنتم تقولون لا نخن من ائتمنك فليت شعري ان
كانت لك ابانة لازبة أتقضيها ممن يوجس منك ويستعد
لغدرك أم ممن يطمئن اليك ويثق بك ؛

وأنتم تزدرون من لا غيرة له ولا حمية عنده لعرضه .
وكأنكم من لا مز فيكم يهمس : هذا فلان العظيم كان يعلم عن
زوجه ما يكره وكان يتغاضى عن الشبهة وان كانت لتفقأ
عينه طمعا في مسعدة أو اتقاء لمناواة فهو نذل يدنس العظمة
ويلوث الرئاسة . . . رويدكم أيها السادة . ! هلا قلتم ان شغفه
بالمجد أكبر من شغفه بزوجه وأنه أشد على المجد غيرة منه
على امرأته وهلا عرفتم أن الحقيقة تلوث الكروب . ولكن
جيفة لا تلوث الجو الموبوء . وزعمتم انه
نذل يزدرى فهلا قلتم انه يزدرى العواطف ويترفع عن أحكامه
ومصطلحاته ويستهين بالدنيا حيث يرى تعبد المجد ثم لا
تأبى أن تضع مفاتيحه بعض الأحيان في يد السفاسف
والشهوات

وكذا أقول لكم أيها الأحياء ما أنتم مليئون بعلمه لو

انتبهتم اليه . ألا فاعلموا ياأخوتي ان الحسد والبغض والنفاق والملق والكبرياء والانانية والقسوة والسرقة والغدر والخيانة والتغاضي عن العورات ألصق بكم وأقرب الى طباعكم وأجدى لكم من العدل والحق والواجب والضمير . فاعلموا بنا نقذف بهذه الاوهام في عرض اليم ولا تأخذنكم بأليم رحمة . فيطلق القوي يده [illegible] حسابا ولا متوقع عتابا أو عقابا . ويخلد الضعيف [illegible] بالخسف ولا يشكو من العسف متعللا بالعدل الذي لا يسمع نداء الضعفاء . والحق الذي لا يقوى على كبح جماح الاهواء . متعلقا بالواجب الاعمى والضمير الموسوس . والنفس اذا علمت أن لا مفر لها مما يصيبها [illegible] ان الاقوياء لا يتجاوزون حقهم ولا يخرجون عن حد [illegible] عليهم وانه لا مهرب لها من هؤلاء الاقوياء الا الى قوة [illegible] قوتهم [illegible] هان عليها حمل [illegible] على [illegible] فاسمعوا أيها الاقوياء : هذه حقوقكم ومزاياكم واسمعوا أيها الضعفاء : هذه علائقكم ومساواتكم . ومنه ان كنتم تعقلون

ولما فرغ الثعلب من خطابه بهت الجمع فوجموا ساعة لا ينطقون لفرط ما بدهتهم آراؤه المرعبة فلما ثابوا الى أنفسهم ضجوا وصخبوا فعلا التصفيق من جانب والصفير من جانب وكادت تكون فتنة وابثوا كذلك في اختلاط ولجب حتى هدأت ثائرتهم فسمعوا القرد يقهقه قهقهة عالية ويقول : لله درك يا ثعالة ! ما أدهاك في صراحتك وأعظم كيدك في نصحك وأشد محاباتك وتدليسك في اخلاصك . لقليل والله عليك أن يجزيك أبو الحارث على هذه الخطبة البليغة بقفص من الدجاج . . وتوجه الى الجمع وهو يقول : لعلكم تضحكون من تصدّى الثعلب وتولّى الرد عليه والذب عن الفضيلة فاضحكوا ما بدا لكم فما هي بأولى مضحكاتي وما أنتم عن الضحك بممسكين . ثم ظهر عليه الجد وتهيأ لإلقاء خطاب طويل جليل فقال :

خطاب القرد

معشر الاحياء

ليس بأهل لعظيم من الحظ ولا يسير من لم يكن عنده من صدق العزيمة وحسن البصيرة ماباهمه شراء الآجل الكبير بالعاجل اليسير .

ألا وان الحياة معشر الاحياء لا تسلم لمن طلب الحياة فحسب ، ولكن من طلب غاية فوقها سلمت له الحياة وسلم له ما فوق الحياة

ومن تمسك بالقوة وحدها أضاع القوة وتدلى الى الضعف . وأما من تطلع الى أعلى منها فذلك الذى تدين له القوة ويدين له ما هو أعلى من القوة

كذلك ياقوم من قنع بالكفاف عز عليه الكفاف ومن طمع في الغنى ينال الكفاف وينال الغنى

فاذا علمتم هذا فاعلموا أن العدل والحق والواجب والضمير لو كانت مجهولة لوجب اختراعها . ولو كانت أوهاما مخترعة لوجب اتباعها . لان العدل فوق المصلحة والحق

فوق القوة والواجب فوق الهوى والضمير فوق الشريعة فمتى أردنا أن نظفر بالمصلحة ونتصرف بالقوة ونتمتع بالهوى ونصون الشريعة فعلينا بما فوقها علينا بالعدل والحق والواجب والضمير

أنا لا أنهج أيها السادة نهج المجادلين فأتتبع كل كلمة قالها المعاب بالتفنيد وأبطل كل حجة أتى بها وأدحض كل رأي ذهب اليه كأن الحق لا يقوم بين اثنين حتى يكون أحدهما مصيباً لا موضع عنده للخطأ أو مخطئاً لا موضع عنده للصواب . فقد أرى الصواب في كثير مما قال الثعلب وأوافقه في معظم مقدماته بل في ظاهرها كله . ولكني أراه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء . وربما نظرت مثله الى عمله فأتيته حافلاً بشر مكتظ برذيلة حتى اذا نظرت الى النتائج البعيدة ونظرت الى بلدي احتجب الشر عني فلا أرى الا خيراً محضاً

فمن أن تقوم عمدا حافظ وأساس الحق وبغية كل نفس وأنه يحل لها ما لا يحل لغيرها ويدرك بالجود ما الغدر

أحيانا ما لا يدرك بالعدل والوفاء فهذا صحيح لاريب فيه .
ولكن أية قوة :. وإلى أى حد "

ليست القوة ضربا واحدا ولكنها قوتان : قوة السيل الجارف العرم تجتاح السدود وتدمر الصروح وتهلك الحرث والنسل وتطغى على العامر فتخربه وعلى الغامر فلا تعمره ثم تسيح على وجه الرمال فتذهب جفاء وينتهي بذلك أمرها كأن لم تكن شيئا مذكورا . وهذه قوة الخراب

وقوة الينبوع العذب المتفجر الفياض تسرب في تربها وتسري سريان الدم في العروق فتروى العطاش وتصلح الموات وتنبت على ضفافها الخيرات وتنشأ فوقها المدن الآهلة فيها سكن للناس ومستراد . والمروج الناضرة فيها متعة للناظرين ورزق للعباد — وهذه قوة العمار

القوة قوتان — قوة البخار الهائم تعمى لا بصار هبوبه وتلفح الوجوه وقدته . وتبدد في الهواء حركته . ثم يمحى أثره وتغيب عن الابصار صورته — وهذه القوة الضائعة

وقوة البخار المضطرب في المراجل يسير الجبال ويضاعف

ثمرات الاعمال ويصل الغرب بالشرق والجنوب بالشمال ، ينهض بما لا تنهض به الالوف المؤلفة من السواعد والمعاول ويقضي في ساعة مالم يكن يقضى فى الدهر المتطاول — وهذه القوة الحكيمة

•

القوة قوتان — قوة الطاغية الغشوم ، والجبار الظلوم . يسوق الصفوف الاجبة تصخب بالحياة فاذا هى جثث يحوم عليها الحمام . ويطرق المدائن الفخمة فتندك آكاما على آكام وركاما من فوقه ركام . ثم يقف فوق الاشلاء الممزقة والكواهل المرهقة يعجب بما بلغت اليه قدرته على الخراب والارهب . ويختال بما أوتيه من سطوة التنكيل والعذاب — وهذه قوة الهمجية

وقوة الجود الغيور يرى المساكين يدخون بالتعب فيسره أنه قدر على رفعه . ويبصر الضعفاء يأنون من الظلم فيطربه أنه زعيم بدفعه . وينظر العقل المجهول شامخا بأنفه فيلذ له أن يطأه بقدمه . ويسمع دلال الخادم ينادي عليها في سوق الفجور فيشتريها ... رده . ويقصد الناس فيرى

انهم أقروا له بنهاية القدرة ساعة عرفوا حاجتهم اليه ، ووفوه أجره حين مدوا أيديهم مستعينين به . ثم يقف بين غرس أياديه وثمار مساعيه فيستروح من شكر الناس له غبطة لا يستروح مثلها ذلك القاتل من خشيتهم اياه — وهذه قوة المدنية .

فيا من يعبد القوة : أي القوتين أحق بالسيادة وأولى من الخلق بالعبادة ؟ .

لقد مضى زمان كانت فيه القوة كلها من الضرب الاول : قوة خراب طائشة همجية . كان ذلك وركب العالم في أول مراحله . فلما تقدم الركب اصطبغت القوة بصبغة أخرى أبقى لها وللعالم من صبغتها الاولى واستقامت الفطرة على هذه الوجهة دهورا وأجيالا بأمر الطبيعة أم شؤون الطائشة والسديدة . لا بأمر قيم فضولي من خارجها . لان هذا القيم الفضولي غير موجود . يبدأ كما ينشأ مجرى أو يعوقه عائق فيتدفق بينا ويعلو سيلا جارفا . وكما ينشعب المرجل فينطلق البخار المحرك دخانا ناعما . كذلك

تفسد الطباع فتنقلب قوة العظيم بلاء على قومه ووبالا ابنى
جنسه فيقال لها حينئذ قوة مدبرة من المدنية الى الهمجية
وتعد نكسة في الخلق وأعجوبة نصفها بشري ونصفها
حيواني وحشي . وهذه هي قوة الغشمة الطامعين الذين لا
يبالون شيئا في جنب قضاء أوطارهم واظهار أنانيتهم . وان
شئتم برهانا على أن العمل بالقوة فحسب هو خلل في الطبع
ورجوع الى حال خلفها الانسان وراءه ليتبدل حالا خيرا
منها . فانظروا أي الناس يظهر فيهم حب التدمير ، ويغلب
عليهم العمل بالقوة منفردة عن الضمير . أليسوا هم الطفل
والهمجي والمجنون ؟ فانظروا في أي مرحلة من مراحل
الخلق هؤلاء الثلاثة — أما الطفل فهو في أول عهده بالحياة
الفطرية . وأما الهمجي فهو في أول عهده بالحياة الاجتماعية
وأما المجنون فهو انسان سلبت منه المدنية فارتد الى الهمجية
أو الوحشية . فليس الجنون الا نوعا من المسخ والرجعة .
وهذه ذات دور الجنايات ترون فيها من تبنى على أثره تقليدا
للحروب . ومن سلبت منه قوة الخلق فأصبح يعوي عواء

الذئاب . ويحاول الكلام كمن لا يعرف قط ما هو النطق والخطاب . ومن يأكل لحم أخيه حيا كما ينهش السبع فريسته . ويتنمر لاخيه المشفق تنمر الضيغم أخطأ قنيصته. وترون أمارات الوحشية بادية في ملامحهم ونظراتهم واشاراتهم فتعلمون أي مسافة بين القوة والضمير. وتهولكم هذه الهوة التي يريد التعب أن يسقط الخلق عامة فيها

أرأيتم أيها الصحاب لو بقيت كل قوة في الارض والسماء فوضى على نشأتها الاولى . أين كانت تكون الآن الكواكب السابحة والانهار الجارية والصناعات المعجزة والائمة المصلحون ؟؟

ولو أن التعب ألقى خطبته هذه في مستهل الخليقة وفجر الحياة لئن كانت كل قوة حربا على نفسها وعلى غيرها وكان كل ضعيف قتيل وحده عزلا أمام كل قوي . ثم عاد التوقح ولا أقول غير الحق أما والقوى قد هجمت في أي ناحية قبل أن تنتهي اليه وحاولت كل محاولة تستطيعها قبل أن تحل به . وعرفت جهد ما تقدر عليه إذا تفردت بنفسها

وقصارى ما تبلغ اليه اذا أعانت حكمها باسمها . فاليوم قد اضطرت ان تلقى مقادتها لشيء أكبر منها وخرجت من تلك التجارب مهذبة مستقيمة — وياللعجب ياقوم ؟ : ان الذي هذب القوة وأبطل حكمها الاعمى هو القوة لا سواها . .

أقول ياللعجب ولا عجب هناك لو أنعمتم النظر معي في الامر وعرفتم ان القوة انما سلمت للحق بعد ان أذعنت لقوة أكبر منها فكأنها نقضت شريعة القوة من جهة لتؤيدها من جهة أخرى . وما ظلمها الحق ولا غلب عليها الضعف ولكنه نظم صفوفها وحمى الكبير والصغير منها فحفظها من التخاذل والضياع

معشر الاحباء

كأني بأول قوي عرف نفسه فأخذ بسطوته وأعجبته قدرته وقبض بين يديه على رأس ضعيف ويقول له : انك أضعف مني فحسبك [illegible] وأحق وجودك [illegible] وسلمني زمامك واعطني [illegible] لانفسك ولا [illegible] وهتمنك وجعلتك [illegible] . [illegible] وتلت الضعفاء

بعضهم الى بعض وقد علموا بعد حين أنهم مقصودون بهذا الوعيد فردا فردا فأجابوا وتألبوا وصاروا باجتماعهم أقوى من أقوى الاقوياء فكرّوا الى ذلك المتمرد الجبار قائلين: انك أضعف منا فاصدع بأمرنا وألحق وجودك بوجودنا وسلمنا زمامك واعمل لنا لا لنفسك. فان أطعت أطعناء وانتفعت بقوتك وانتفعنا . وان أبيت أبدناك وهشمناك وجعلناك ترابا لاقدامنا فعلم القوي منذ ذلك الحين أن عليه واجبا كما أن له حقا ..وكذلك نجم الحق بجانب القوة

لاتقولوا ياقوم : حسدوه . فليس من الحسد أن يرفع القتيل يد القاتل عن عنقه

ولا تقولوا : ظلموه فما ظلمك من ردك الى الحكم الذي ترده أنت اليه . ولاجار عليك من يعاملك بالقسطاس الذي تعامله به

ولا تقولوا : أخطأوا وضلوا فان ماتنعله النفوس ببداهة بوحي الطبائع والهام الحياة ذودا عن كيانها وابقاء لجنسها واعلاء لشأنها لا يكون خطأ أو ضلالا . ولو جاز ذلك

لكان الخطأ أصدق من الصواب والضلال خيرا من الهدى

معشر الاحياء

ان كان فى الدنيا شيء معصوم من الخطأ فهو فطرة النفوس السليمة لانها لا تريد الا ماتريده الطبيعة لها ولا تهم الا بما تهم به القدرة العظيمة التي ركبتها ودعتها الى الوجود

سموا حنق الجماهير على العظماء كيف شئتم فانما هى أحرف تتغير ولا تتغير الحقائق والغايات. سموه حسدا أو أنانية أو اضطهادا أو انتقاما أو غيرة أو جهلا . سموه كيف شئتم ثم انظروا الى الباعث وانظروا الى النتيجة فان كان الباعث مستمدا من الطبع والنتيجة حفظ النوع فغيروا لغتكم فهو أيسر وأجدى من تغيير قوانين الطبيعة وارادة الخالق الحكيم

انظروا الى الامم التي سادت فيها فلسفة الثعلب ونسى الجماهير أنفسهم فاقروا للاقوياء بالحق المطلق فى التصرف بهم ثم أخبروني هل أفلحت تلك الامم ؟؟

انظروا الى الهند ومصر فى العهد القديم . ألم يكن

السوقة رجزا لايجوز مسه فى نظر رؤس البراهمة ؟، ألم يكن الشعب متاعا زهيدا فى نظر كهنة الفراعنه ؟: أما كان ساداتهم آلهة وأبناء آلهة؟، هل تأشب بين الطبقات حجاب أصفق وأصاب مما تأشب بينهما فى هذين البلدين . فماذا أورثهم ذلك ؟ هل دام لأولئك السادة بأسهم واستتب لهم مدي الدهر مجدهم ؟ كلا بل أمن الاعلياء على منازلهم فأفسدهم البطر والدعة فسفلوا. وحجرت المسكنة على نفوس جماهيرهم فلم ينبغ منهم خلف لأولئك الاعلياء فتهافتوا . فكانوا جميعا من الخاسرين

والعالم وفقكم الله كالقدر الفائرة لاتزال تعلو وتهبط مادام فى مائها حرارة . ادخروا أعلاها وأريقوا مادونه ينفد الماء ولاتدخروا شيئا. ودعوا ماءها يهدأ أو تستقر طباقه تفتر الحرارة وتخفت الحركة . والجماهير أصلحكم الله هم من كل نوع مادته وذخيرته. منها تجدد حياته ومنها يكمل نقصه فمن قضي عليهم بالهوان الدائم فقد قضى على النوع بأسره قضاء يحيط ضرره بالاعلين والادنين على السواء

فها أنتم أولاء ترون أن التسليم للقوة يهزمها ويضعفها وان مقاومتها تشحذ سلاحها وتضاعفها . فاذا كانت رحمة القوي للضعيف الابقاء عليه فرحمة الضعيف للقوى منازعته، وكذلك تشمل رحمة ربكم الخلق جميعا

ولقد يقول قائل منكم : إن المقاومة شأن الجماهير مع كل عظمة فهم يناوئون العظيم سواء كان جبارا طاغياً واماما هاديا أو مفكرا واعيا ، فان لم يقدروا على مناوأته أضمروا له الحقد وانطووا له على البغض وتربصوا به الدوائر كأن لهم ترة عنده أو كأنه أخذ العظمة منهم وأساء اليهم بالتفوق عليهم

أقول لهذا القائل أصبت ونعم مايصنع الجماهير !

انكم تكرهون مناوأة الجماهير للعظماء مع أنه لاتثبت لعظيم عظمة الا بالثبات على المناوأة . وتلومون الجماهير في التريث عن تبيعة النوابغ كأنهم يستطيعون أن يغيروا أنفسهم كلما خطر لنابغ منهم أن يدعوهم الى ذلك . وهم في الحقيقة لايتربثون عن أمر يدعوهم اليه نابغ أو مسيطر الا لأحد

سببين . فاما انه لا يلائمهم أو لأن أسبابه لا تتهيأ لهم . وعذرهم واضح في الحالتين — أليس الخير قبل ان تتهيأ اسبابه وتتمهد مواضعه شرا عاجلا أو مطلبا مستحيلا ؟ ولو أنصفتم الجماهير لرأيتم في تباطئهم عن اجابة نداء النوابغ دليلا على أن الوقت لم يحن بعد لاجابته . فكم من عظيم يري ما لا يروقه من أحوال العالم فيخاله عيبا وما العيب الا في تفكيره ، ويتعجل اصلاحه ثم يحسب اصرار الناس عليه جهلا وما الجهل الا في تعجله . ويظن ان مايدعو اليه من بداءة العقول . وما بديهة الفرد مهما عظم بأصدق من بداءة النوع برمته . فهو اذا أصاب اصاب من جانب واحد وهم اذا اصابوا اصابوا من كل جانب . وهم بعد لا يعرفون جانب الصواب منه اذا ابوه . فان ثبت أخذوا به وان لم يثبت فقد كان الضرر في الاخذ به لا في نبذه واهماله — هذا هو محك العظمة ولا محك سواه — على انني لا أقول للعظماء كفوا عن دعوة الجماهير . بل أقول لهم ادعوهم الى ما تظنونه صالحا لهم . ثم أقول للجماهير [illegible] حتى يثبت لكم [illegible] منكم . فمن هذا وذاك

يصيب العظماء الاجلال من الجماهير ويصيب الجماهير النفع من العظماء . ولولا ذلك لاشتبهت علينا الظواهر تخاطلنا بين الجليل والحقير والنافع والضار والباقي والزائل

كذلك يقوم يصطدم الشر بالشر فيتجلى الخير، و يلتحم الباطل بالباطل فيتضح الحق . وتتزن القوة بالقوة فيظهر العدل ، والخير والحق والعدل قواعد لا تقوم بغير واجب . والواجب ابو الضمير

معشر الاحياء

سمعتم من الثعلب ان مبادىء الخير أوهام ملفقة مخترعة [illegible] خيالاً من مخترع الغول والعنقاء والسلطان . فبالله [illegible] [illegible] يستطيع الثعلب أن [illegible] عقلاً فذاً [illegible] [illegible] [illegible] والحق والواجب والضمير [illegible] [illegible] الا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] على ان يستعرض [illegible] [illegible] قبل ان [illegible] عنها [illegible] [illegible] فبالهوى وكيف يراوغ [illegible] [illegible] ثم [illegible]

عن الخطط القويمة التي ستضطر الى اتخاذها فيصورها اصدق تصوير في مبادئ خالدة . مبادئ فوق ما تصف الاهواء المختلفة وتزين المصالح المتناقضة . مبادئ تصلح للنوع والفرد والقوي والضعيف والسر والعلن والحاضر والمستقبل . ايقدر على كل هذا انسان ? ماهذا بشرا ان هذا الا إله قدير

ولكن انصار الشر قد اعتادوا ياقوم ان يصفوا أنفسهم بالدهاء والحزم ويصفوا انصار الخير بالغرارة والتفريط . وسبب هذا الاغترار بأنفسهم انهم ينظرون وراء الفاظ الخير والفضيلة والذمة وما يشاكلها فيروعهم الكفاح والخديعة والظلم والغيلة ويحسبون انهم عرفوا ما لم يعرفه أحد من قبلهم ويعجبون لدعاة الخير كيف تعمى عيونهم عن هذه الشرور الملموسة والظلم الواضح . فيقولون عنهم انهم اتباع خيالات وعشاق أحلام هم ودعاة [illegible] يضحكون من قصر نظرهم [illegible] بعد النظر وتقولون لهم انظروا وراء الكفاح والخديعة والظلم والغيلة ألا ترون هناك غرضا واحدا تعمى [illegible] هذه الاغراض [illegible]

ثم قد يظفر الأشرار بالأخيار وقد يموت الأخيار قبل أن يظفروا بخصومهم لقصر الحياة واتساع مجال النضال . إلا ان الخير يتغلب على الشر في نهاية الامر ، وانما يمهله ويملى له املاء الواثق المطمئن الى سلطانه ـ الاخيار يموتون والخير لا يموت والاشرار قد ينتصرون والشر لا ينتصر . فالنظرة الاولى أيها القوم للخير والثانية للشر . أما النظرة الثالثة فترد نا الى خير لا كالخير الاول الذي يظهر على وجوه الاشياء ولكنه خير واسع شامل بعيد القرار

يقول السيد المسيح : « مثل ملكوت السموات رجل زرع فى أرضه حنطة ، وبينما الناس نيام دب اليها بعض عدوه فدس الزؤان في بذور الحنطة ، فلما اعتم النبت وأخرج شطأه ظهر الزؤان معه . وجاء العبيد مولاهم يقولون : أو لست أيها السيد قد زرعت حبا صالحا فى أرضك ؟ فمن أين له الزؤان ؟ قال تلك دسيسة عدو . قالوا أنذهب فنجمعه ؟ قال لا : لئلا تقتلعوا الحنطة معه وأنتم تجمعونه . ولكن تصبرون حتى يحين الحصاد فآمر الحصادين أن يجمعوا

الزؤان فيطرحوا به في النار ثم يضموا الحنطة الى البيدر »

***

فالانبياء وهم أوسع دعاة الخير بصيرة وأعمقهم نفسا وأبعدهم بديهة لا يزعمون وهم يدعون الناس الى الخير ويأمرونهم بالبر أنهم سيمحون الشر ويقتلعونه من جذوره. ولم يجهلوا أن الخير بالشر مختلط اختلاطا لا سبيل الى فصله وفرزه ، ولكنهم حببوا الناس في العمل الصالح لان الناس لا يحتاجون الى من يحثهم على العمل القبيح وقالوا لهم: لا تنسوا غيركم لانهم في غنى عمن يقول لهم : اذكروا أنفسكم ولينطلق كل منكم وراء مصلحته ولو صغرت لا يبالي أدركها قاتلا أو سارقا أو خائنا فذلك خير له من أن تفوته بحال من الاحوال.
فهل يلامون على ذلك أو يقال انهم غفلوا عن الشر الملموس . ؛ أم يلام لائموهم ويقال أن هؤلاء الدعاة العلويين لمسوا الشر البعيد الذي خفي عن أعين أولئك اللائمين ؟

انما يعمل الانبياء على تغليب بواعث الخير على بواعث

الشر . ولتعلموا أن الانبياء لم يرسلوا الى فلان وفلان بل هم مرسلون الى الناس أجمعين فلا جرم ينصحونهم بما فيه صلاحهم جميعا . وما اجتهد الانبياء قط فى ازالة الشر ولكنهم أنذروا الشرير بعاقبته وعلموه كيف يتجنبها، وبشروا البار بجزائه وعلموه كيف يسعى له . وعلموا انهم سيموتون والشر والخير باقيان الى يوم يبعثون . وأحسبهم لو استطاعوا ازالة الشر لما أزالوه لأننا لا نكاد نتصور الخير في الدنيا ان لم نتصور الشر بجانبه، ولعله لا فرق بين القضاء بالموت على الناس وبين تفرد الخير بالسلطان عليهم من غير مغالبة أو مجاذبة أو ترقب نصر أو خشية خذلان

وبحسب الخير أنه منذ اهتدى اليه الناس تراجعت القوة وتمردت النفوس على شريعتها فأصبح أقوى الأقوياء لا يجرؤ على الاعتداء ويجور باسم القوة العمياء : بل الآن تتحول له المعاذير ويتذرع لها بسبب من الحق والعدل ، فبطل التمويه القديم : [illegible] مستقيم . وخلفه القول الجديد : تمثل ما يحق لك [illegible] تحت أقدامك [illegible]

واست أعنى ان القوة العمياء قد خضعت للحق كل الخضوع ودانت له فى الصغائر والكبائر . فهذا مالا يدعيه الحق وما ينبغي للحق أن يدعى ما ليس له . ولكن عنيت أن الناس لا يسلمون اليوم بظلمها وان اضطروا الى الخضوع لها ولا تقتنع ضمائرهم بشريعتها وان لم تكن لهم حيلة في تبديلها . وياضيعة العالم ان سلموا ، وياسوء المنقلب ان اقتنعوا . إذ ليس وراء ذلك الا أن يسترخى الاقوياء فيفقدوا العزيمة والمضاء ، وينزل الضعفاء عن الحياة بنزولهم عن الرجاء فتنعدم القوة الحافزة المجددة بين هؤلاء وهؤلاء . وينهار سلم النشوء والارتقاء الى حضيض الموت والفناء

فاذكروا يقوم — أقوياءكم وضعفاءكم — ان التسليم للقوة الغاشمة يفسد القوي منكم والضعيف . و[illegible] لاتي يشرف التسليم له الاقوياء كما يشرف ضعفاء غير الحق . فجعلوه لكم قد[illegible] وإماما . واتخذوه لكم صاحبا ولزاما

واذكروا أن [illegible] حديث عن هذه الآداب وله ندحة عن سلوكها [illegible]

لأن الطبيعة لا تملك الخيار بين طريقين وليس لها الا طريق واحدة هي أهدي الطرق وأقربها بل هي الطريق التي لا طريق سواها . فان قال لكم انصار الشر : نحن ننظر الى الواقع فقولوا لهم : هذا هو الواقع أمامكم فما لكم لا تنظرون

ولقد خصصت الانسان بأكثر كلامي ، فلا يعتب على عاتب ولا يتهمني منكم متهم فانكم لا تنكرون أن الانسان سيد المخلوقات وان الصراع بين القوة والحق لا يظهر في حياة جنس من الاجناس ظهوره في الحياة الانسانية وأنا أقرب الخلق اليه وأعرفهم به وأعلاهم رتبة بعده . . .

. . . .

فلم يمهله النمر حتى يتم كلامه ورفع يده ليهوي بها عليه فعلق القرد بأطراف الشجر وترك النمر الهائج يهدر ويزمجر حتى وقف الاسد . فهابه النمر واصغى اليه الجمع وهم يعجبون من قوة النمر الشرس الا انهم عجبهم من عجز القرد الفيلسوف عن دفعه

* *

وقف الاسد موقف الخطيب والقى على الجمع الخطبة التالية :ـ

خطاب الاسد

معشر الاحياء،

ربما انتظر بعضكم مني أن أتقدم الى الترجيح بين حزب وحزب من المتكلمين بين أيديكم — ألا فاعلموا ان هذا ليس من شأني وما نويت التعرض له حين وقفت للكلام. وليس كلامي الذي سألقيه عليكم متوقفا على رجحان واحد من الحزبين على الآخر . فسواء صح قول الثعلب ان العبرة بالنجح لا بكيفيته ، أو صح قول القرد ان الحق ظافر بالباطل ولو بعد انهزامه ، فأول الواجبات عندي على الحي أن يكون قويا ، وآخر الواجبات عندي على الحي أن يكون قويا ، لأنه لا ظفر لحق أو الباطل إلا بقوة

وهما حالتان لا بد للحي من احداهما في هذه الدنيا : القوة والضعف — ولئن خيرت بينهما لاخترت أن أكون قويا ظالما ولا ضعيفا مظلوما . بل اني لأوثر أن أكون قويا مظلوما ولا ضعيفا ظالما ، لأن القوة رائعة حتى في انخذالها والضعف مخز حتى في انتصاره

ولقد أذهب الى أبعد من ذلك فأقول ان الطبيعة نفسها تحب الظلم وتقلد الظالمين آلاته وأسلحته . ولولا ذلك لما كانت حيوانات الفتك والافتراس وان صغرت ، أشد وأجرأ من آكلات العشب وان كبرت . وها كم اخواتنا الفيل والزرافة والجمل . فانها مع جسامة أبدانها وصلابة أركانها لا بطش عندها تفزع به أعداءها ولا أنفة لها تنخيها عن اعطاء مقادتها لاصغر طفل من بني آدم . ولم ذاك ؟؟ أليس لأنها تتغذى بالنبات ولا تأكل من لحوم الحيوانات ؟؟ فكأن الطبيعة تهب الحيوان البطش والشجاعة لغرض واحد هو الاعتداء بهما . فان لم تكن به حاجة الى السطو وازهاق الارواح سلخت عنه البطش وجردته من الشجاعة . فان بقي له بعدهما قوة فتلك قوة الصبر على البلاء لا قوة العزم على الاعتداء . قوة تحتمل الضيم من القاهرين . ولكنها لا تقدر على قهر أحد .

فيا معشر الأحياء : عليكم بالقوة لا تنيطوا لكم أملا بغيرها — تمسكوا بقوة الاتحاد ان تخذلكم القوة في الانفراد

وعليكم بقوة الحيلة ان أعيتكم قوة الاتحاد ، انما كونوا فى كل حال أقوياء تنجوا من عقاب الضعف المبرم . ولست أغلق على الضعفاء باب الامل مما بين الاقوياء الطامعين من فرجات الخلاف التي لا تنسد أبداً . ولكني أقول لهم أولا وآخرا : كونوا أقوياء ثم كونوا أقوياء يكن أملكم بأيديكم لا بأيدي الاعداء والاصدقاء

*
* *

فلما انتهى الاسد من كلامه تهيبت الحيوانات أن تعقب عليه وظل كل منها ينتظر أن يتقدم غيره للكلام بعد الاسد . إذ كانوا لا يريدون أن يوافقوه على رأيه وحكمه ، ولا يهتدون الى وجوه الحيلة في مناقشته . وقد كانت المرأة تهم بالكلام بعد كل خطيب فيسبقها حيوان الى الخطابة فلما رأت سكوت الحيوانات في هذه المرة لم ترد أن تضيع الفرصة فبادرت الى وسط النادي وباغتت الجميع بهذا الاستهلال العجيب

خطاب المرأة

سبع يخطب بين السباع ـ وهذا السبع هو هذه القائمة بينكم الآن ـ ألم يدعني بعض الرجال سبعا جميلا ؟؟ فأذنوا لأحد السباع أن يبسط لكم شكواه من الرجال

شغلكم البحث في النزاع بين القوة والضعف والغلاب بين الحق والباطل عن البحث في علاقة هي الصق بكم من كل علاقة . أعني بها علاقة الزوج بزوجه . فرب قوي منكم لا يعرض له ضعيف في غدواته وروحاته ورب ضعيف لا يثني بقوى طول حياته ، على حين لا يوجد بينكم ذكر لم يسكن الى أنثى أو أنثى لم تسكن الى ذكر

ولا غرو أن سهوتم عن هذه العلاقة فانكم لا تبخسون لانا سكم قدرا . ولا تهضمونهن حقا ، وأكثركم يكل اليهن اختيار من يعجبهن منكم . فتنتخب الانثي من تحب وتصدف عمن تكره ، فهن معكم في حال لا توجب الشكوى ولا يستحب معها التبديل

أما نحن بنات حواء فليت لنا عند رجالنا حظوة أناثكم

من ذكوركم ـ نحن نساق سوقا الى أغراض ليست بأغراضنا، وتغمض أعيننا عمدا الا عما يروق أزواجنا . نحن معطلات الا عند مايشتهينا الرجال . مقصورات الا عما يرضونه لنا من ضروب الكمال . لنا رؤس ولكنهم يقولون انها لم تجعل للتفكير بل لارسال الشعور . وحواس ولكنهم يزعمون انها لأجلهم ركبت لا لادراك [illegible] الأمور . ووجوه يلفونها في احجاب [illegible] . و [illegible] لنظر بها بل لينظر اليها [illegible] . أخضعتنا الهمجية بقسوة وأذ[illegible] [illegible] . ولكن الهمجية كانت أعدل [illegible] من المدنية . فقد كانت توقعنا في أحضان [illegible] . ولم يكن [illegible] الرجال في [illegible] الاجيال . [illegible] رجال [illegible] وأ[illegible] [illegible] مأفون الفكر [illegible] وتقتلهم لأبنائنا وبناتنا [illegible] دينية ،

ويكفلون لنا اللهو والزينة : حاجات المدنية الخاوية ، وعلالاتها الخاطئة الغاوية . أما حاجات الطبيعة المكتوبة فى كل ذرة من ذرات أجسامنا : من رونق للصبا يرقص له قلب المرأة ، ونضرة للعافية تتشوف اليها جوانحها . وخصال نبيلة وصفات رائعة وروح خلابة يسرها أن تنقلب الى أبنائها وأن تنجب جيلا كله مصوغ في قلبها . فقد علمتنا المدنية أن ننزلها المنزلة الثانية بعد حاجاتها . فاذا نسينا أنفسنا طرفة فتغلبت ارادة الطبيعة [illegible] فينا من حاجات [illegible] ، كان أول من يسفهنا ويهجرنا آباؤنا وأهلونا — أو نحن نحتال كي ننال منها خلسة فنغتنم مخلس سرق . فاذا انكشف أمرنا للناس كان [illegible] [illegible] الكذب بين الناس ، أول من [illegible] ويسمنا [illegible] خزي لا يمحى

[illegible] رجل عابس في روح متعبس وسمات [illegible] كأنه لا ترى الا حياة مستقلة عن جسده . وهو ما يجوز أن يستمر بعد مماته . وقد يرينا أبدا [illegible] كأن وجود .

ضرب من التهم . وكان العدل في تلك الاجيال على العنف وبسطة الجسم فلم يخصنا هذا الظلم بل شاركنا في أكثره كل ضعيف مغلوب على أمره : رجلا كان أو امرأة . وحرا كان أو اسيرا . وكنا لا نعقل هذه المساواة بل كنا نحسب ان العدل ما يصنع بنا . فلما تعاقبت الاجيال : وحالت الاحوال . واستدت الملاحظة بين المقهور والقاهر . وزالت الغشاوة عن الابصار والبصائر . عرف المغلوبون انهم هم الاقوياء ولكنهم مسحورون بالطلسم المذكور . وعرف الغالبون انهم هم الضعفاء ولكنهم جالسون مجالس النفوذ والظهور — [illegible] لمكانهم لا لجسارة جنانهم أو صلابة أبدانهم وطلاقة لسانهم أو رجحة أذهانهم : ووقف كلاهم أمام صاحبه [illegible] المظاهر [illegible] فيه من فضل [illegible] . فنزع [illegible] عن [illegible] الغطرسة . ونفض الآخرون غبار [illegible] المسكنة وأصبحوا منذ ذلك الحين سواء بين يدي [illegible] : [illegible] من العدوت في [illegible] .. أفكان ينبغي

حينئذ أن تشمل هذه المساواة كل من كان مغبونا بالأمس؟ نعم ولكن هذا لم يكن. فقد بقي النساء مستثنيات من هذه الرحمة العامة حتى في أرقى الأمم وأعرقها مدنية — وان تعجبوا معشر الاحياء فاعجبوا لامرأة تملك الشماء الفيحاء والرباع القوراء والمتاجر الجوية والمصانع الدوارة وتسن القوانين لاصلاح هذه الاموال وحياطتها فلا تنول في سنها صوتا يخوله رجل لا يملك أصبعا من ضيعة أو لبنة من دار أو علبة في متجر أو [illegible] في مصنع ! [illegible] عن [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] لا أن تيأس اليأس كله من [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ذلك [illegible] انا

[illegible]

[illegible] : أيستكبرون على [illegible] [illegible] [illegible] وأجرائهم : [illegible] [illegible] من

هندام شكل . ولو أننا ادعينا ذلك لما كان منا بدعا في الادعاء . ومع هذا فنحن لا نزعم ان كل امرأة أجمل من كل رجل فما بالهم يزعمون ان كل رجل أعقل وأحزم من كل امرأة ؟!

على اننا لا نذكر ان المجال اتسع لنا مرة لمجاراة الرجال فيما يباهون به من أصالة العقل والحزم فقصرنا عن شأوهم ولم نكن قرينهم . فمنا نساء الحرب اللواتي كن يقاتلن مع الرجال كتفا لكتف نضحا عن أوطانهن وصيانة عن بيوتهن . ومنا الشواعر والرياضيات والمكتشفات والباحثات والسياسيات . فان كان عدد هؤلاء لا يضاهي بعد عدد أمثالهن من الرجال فليس هذا من خطئنا . وانما هو خطأ الرجال الذين [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] فنحن [illegible]

رضينا بهذه القسمة الضيزي ، ونحن خليقات بالغبن ان لم نطالب لأنفسنا بخير منها . وها أنتم أولاء تجتمعون هنا لتبعدوا أسباب التخاصم وتقربوا وسائل التفاهم ، فهلا أهبتم بالرجل أن امنع الغبن من بيتك قبل أن تمنعه من الدنيا وارفع الصغار عن أمك وزوجك قبل أن ترفعه عن الناس ، انكم لا شك فاعلون

***

وجلست المرأة وهى توهم نفسها أن أبناء الحيوان ستثب على الفور للاخذ بناصرها . فلم يحصل شىء من ذلك ونظرت كل أنثى الى صاحبها وهى تبتسم ابتساماً لم يعزب عن السامعين مغزاه ثم بدر الرجل فقال

خطاب الانسان

معشر الاحياء

كنا نحذر كل الحذر من يوم تصل المرأة فيه الى نصيب ولو قليل من الحرية فتنظر الى نفسها بعين المعجب المفتون كما كانت تنظر الى وجهها بهذه العين آلافا من

السنين . لأ ننا نعلم ان المرأة شديدة الطيش والغرور لا تنال القليل حتى تطمع فى الكثير ولو أنها حرمت كل شئ لما طمعت في شئ ما . ثم هي لا تجد ما يساعد غرورها حتى تذهب فيه أبعد مذهب ولن ترى مسألة مهما ضخمت أكبر من ان تخلطها بسفسافها وألاعيبها الصغيرة

قامت المرأة بينكم اليوم تطالب بشئ ليس من ضروريات حياتها ولا هو مما يلزمها لأداء وظيفتها الطبيعية وانما اراها تطالب بضرب جديد من الزينة سمعت باسمه فتعلقت به كما يتعلق الطفل بما يسمع عنه ولو كان مقره وراء النجوم . فلا تصدقوا معشر الاحياء ان المرأة تطلب الحرية لانها تفهم الحرية ولكنها تطلبها كما تطلب قرطاً تلبسه أو ثوبا من الزى الاخير . ولو صبغنا لها الحرية باللون الذي ألفت به الاستعباد لما استطاعت أن تميز بين هذين النمطين من الثياب . ثياب النفوس لا ثياب الجسد.

انكم قد اجتمعتم هنا لتتشاوروا فى أمر ليس أجل منه ولا أصعب . اجتمعتم للنظر فى مسألة الحياة كلها

ومعضلة الخلق أجمع فما كان يدور لى في حساب انني حين أتقدم للخطابة بينكم أجد نفسى امام حماقة من حماقات المرأة المعهودة . ولكن ما العمل وهذه الحماقة لا تفارقها في موقف من المواقف !!! حدثها عن كواكب السماء تقل لك ما أحلاها : انها تشبه اللعبة التي يلعب بها ابنى أو ابنتي . . . وهى تدخل في كل أمر مطالبها التافهة التى يخيل اليها ان الوجود يدور على محورها ولا ينبغى للناس أن يأبهوا الشأن من شؤون الدنيا غيرها .

لقد طالما صبرنا أحقاباً مديدة على حماقات المرأة صبر المرء على شئ لا مهرب منه . ولا بد لنا أن نصبر بعد على ما يمتحننا به الله من هذه الحماقات الى آخر الزمان — إلا هذه البدعة التي جاءتنا بها في هذه العصور الحديثة . نصبر على كل حماقة إلا قولها أنها قد أصبحت نداً — ولا ندرى كيف — مثلنا في كل حق وواجب . لها ما لنا وعليها ما علينا . وانها اليوم لن تحل فى الهيئة الاجتماعية محلا أوضع من محلنا أو تتجاوز عن حق نحن نتمتع به دونها ـ هذا ما لا نطيق

الصبر عليه أو تطيق هي أن تكون رجلا وامرأة في آن واحد . ونطيق نحن أن نكون لا بالرجال ننفرد بحقوق خاصة للرجولة ، ولا بالنساء نخلف المرأة في وظيفتها التي تريد أن تتخلى عنها

أي مساواة للرجل تدعيها المرأة وهي الى اليوم لا تجاريه في صناعة الطهي لو شاركها فيه ؟ فما اشتغل رجل وامرأة بهذه الصناعة الا برعها واستحق أضعاف أجرها مع أنها قضت الدهور والاجيال لا عمل لها سوى طهي الطعام واشتغل الرجل في هذه الدهور والاجيال بكل الاعمال سوى هذا العمل

لا فرق يا قوم بين أن تقول المرأة أنها مثل الرجل في كل شيء أو تقول انها أرجح منه وأكمل . فلو سلمنا لها بأنها قادرة على أن تجمع صفات الانوثة من لطف ووداعة وتعطف وسلاحة واستعداد للحمل والحضانة : الى صفات الرجولة من همة وعزم وحكمة وحزم وأخلاق متماسكة وطبائع نزاعة ومواهب متنوعة ؛ فهل يقدر الرجل على أن

يجمع مثلها بين هاتين المزيتين ؟ ان كان الجواب (لا) وهو حتم لا مراء فيه . فما بالها زادها الله تواضعاً تقنع بمساواة الرجل ولا تدعي التفوق عليه وهي امرأة ورجل معاً وهو رجل فقط . أليست هي حينئذ أجدر بأن تتولى السيادة في ميدان هذا العالم الكبير فوق سيادتها في عالم الحجال والمقاصير ؟

لو قام رجال فادعي انه يستطيع أن يزاحم المرأة في الولادة والرضاع لقام في وجهه مكذب من تركيب الجسم ونظام أجهزته وأعضائه . أما صفات الرجولة التي يدعونها فليس لها جهاز خاص ظاهر للنظر أو لعلم التشريح ، فلذلك حقت للمرأة أن تدعيها لتخرج بها العقل وقوة الطبع أيسر عليها من ادعاء الرجل الاستعداد للحمل والرضاع وإن الأمرين بمنزلة واحدة من الصعوبة والاستحالة . وكل ما فيهما من الاختلاف أن مزية المرأة في التركيب الجسمي ظاهرة للحس وأن مزية الرجال لا تظهر لها في شكل خصوصية جثمانية على أن هذا لا ينفي أن تكون هذه الخصوصية

تظهر فى أعمال الرجل ومراميه وان لم تظهر أعيانها فى أعضائه وجوارحه . هذا اذا كابرنا مكابرة المرأة وقلنا ان الرجل والمرأة فيما عدا الحمل سواء فى كل صفة جسمية ، ثم جاريناها فى القول بان ما يبدو بينهما من الفروق حتى في هندام الجسم وهيكله الظاهر انما هو عبث لا يشير الى حد طبيعي بين عملهما في الحياة

ولقد والله أنصف (اناكريون) المرأة حيث قال وهو أسير الناس لسرها وجهرها وأخبرهم بحولها وحيلتها .

« ان الطبيعة الحكيمة قد وهبت الثيران القرون . والجياد الحوافر . وجعلت للارانب سوقا دقيقة سابقة تنجو بها ، وللاسود نيوبا حديدة قاطعة تمزق بها فرائسها ، وقد علمت الاسماك كيف تنفتل فى الماء ولا طيار كيف تحلق فى الهواء ... والرجال أودعت قوة السماحة والبأس . أما المرأة فلم تجد عليها بشىء من كل ذلك . فبم جادت عليها اذن ؟ بالجمال ... الجمال سلاح المرأة ومغفرها فمن عرفت من النساء كيف تمس هذه السكة السابغة فاياك ايك من سلطانها فالسيف

«والثأر بعض أعوانها . . . »

وليس هذا القول من قبيل المجاز لأن حقيقته محسوسة بارزة للعيان . فالجمال في المرأة كالسيف في يد الرجل وكثيراً ما صارع الجمال السيف فثلمه وفل حده وأخذ بمقاده ولا عار في الانهزام أمامه . لأن في هذا الانهزام انتصاراً للطبيعة والمهزوم امام سلاح الطبيعة غير مغلوب ـ ما بال المرأة جهلت قدر هذا السلاح في هذا الزمان، وما بالها تراه لا شيء عندها في جنب قوة الرجل . هل يعجب المرأة الجميلة ان تخلع الجمال وهي امرأة تتقلد السيف، انها لا تستحق حينئذ حب الرجل وهيامه لانها عدو له يغالبه بسلاحه او يزاحمه في مفاخره . ولا تثير شغف المرأة واعجابها لان المرأة لا تشغف بامرأة مثلها ـ ألا فلتعلم أن المرأة المترجلة تصول بسلاح غير الذي تلدته الطبيعة اياه فهي لا تصيب بهذا السلاح الصناعي الى غرض من اغراض طبيعتها . وهي خاسرة بما لها من مزية على سائر النساء وليست برابحة . فما حظها في هذا الخسران ،

أيتها المرأة : قد أصغر هذا الزمان سلاحك في نظرك فهل تظنين انه أنصف الرجل ؟، كلا ! ما نصيب الرجل من زماننا هذا إلا كنصيبك وما ظلمك هذا الزمان بشيء الا بعد ان ظلم الرجال باضعافه ـ ان العيوب الاجتماعية التي أصغرت سلاح الرجل الطبيعي في نظره وجعلت الدينار فوق الاخلاق والمواهب والقوة هي العيوب التي جعلت المال فوق جمالك وفتنتك ، فلا تحسدي الرجل على قسمته ولا تزاحميه في شقوته بل عاونيه على الرجوع الى حالة ترغبينه فيها لشجاعته وقدرته ومزاياه لا لقصوره وضياعه ، ويرغبك فيها لجمالك وشمائلك لا لميراثك ورتبة أبيك

أيتها المرأة ! ارجعي الى اعماق نفسك هل تجدين نعمة من النعم تسرك كما يسرك الجمال : هل تصبين في نفسك الى غرض احب اليك من تملك قلب الرجال : فبماذا تملكينه ؟ ابالعلم والفلسفة والصناعة ؟ لا . بل بالطبيعة. بالجمال سلاحك وعدتك ـ وكل جمال لا يبلغك هذه الامنية جمال عقيم لا تنتفعين به ولا تغبطك عليه اترابك .

أيتها المرأة

كأنك قلت منذ هنيهة متباهية : انا اجمل من الرجل .
نعم انت اجمل من الرجل في عين الرجل اما في عين اختك
فأقبح رجل اجمل منك واحب اليها ولو كنت
تمثال الزهرة حسناً وحوراء الجنة شباباً . فلا تظني انك
كنت تعاين بهذه الحلية لو لم يردها الرجل لك . اليس
جمالك الانثوي هو الثوب الذي اعجب الرجل ان يراه على
جسدك قد البسك اياه فلبسته ؛ وهل انت التي تحبين هذ
الجمال لنفسك ام هو الذي يحبه لنفسه ؟ وهل كنت ترين
مسحته على وجهك ورواءه على اعضائك ام هو كان يراه فيختار
منه ما يحلو له فيبقى عليك ويزهد فيما لا يلائمه فيزول منك .

ايتها المرأة . لا تقفي بثوب العرس تقولين للرجل ان
دوني اخر من ثوبك فانه هو الذي اهداك اياه ولو لم يعجبه
ما عجبك

معشر الاحياء

قالت المرأة بين ايديكم ان الرجل يظلمها اذ لا يريها

من المحاسن الا ما يروقه . فان كانت المراة تعد ذلك ظلما فهو العدل جد العدل فى حكم الطبيعة

نعم نحن نشنأ المرأة المترجلة . ولكنا لا نشنأها اتباعا لنزوات الشهوة الطائشة او التماساً للذة العاجلة . ولو فرضنا اننا نشنأها لذلك أفلا يعوزنا ان نعرف لم كانت خصال الانوثة في المرأة الذ للرجل واجلب لاستمتاعه من الترجل وخشونته ،،

وما دام الرجال كلهم مجمعين على شناءة المرأة المترجلة ألا يشير ذلك إلى إن في باطن هذا الهوى سرا فوق ارادة الرجل والمرأة جميعا ،،

نحن نشنأ المرأة المترجلة لأن الطبيعة علمتنا ان نشنأها على الكره منا . "الطبيعة تبذل لكل جنس ولكل نوع من المزايا ما يحتاج اليه وتحرمه ما هو في غنى عنه . الطبيعة تسير هبتها بميزان دقيق لا يختل قيد شعرة . والطبيعة هي التي تحببنا في المراة الخفرة العروب فسبيلنا ان نعلم من ذلك ان هذه المرأة الخفرة اجمع لصفات الانوثة من سواها . وأن خلوها من صلابة الرجل وخشونته دليل على ان صفات الأنوثة

ملأتها وحافت فيها على صفات الرجولة . فهي لذلك أنفى بغرض الرجل من كل امراة اخرى ، وهي اصلح لغرض الطبيعة الذي تريده منها ومنا . وأي غرض لها من النساء الا ان تجعلهن امهات صالحات لولادة احسن النسل وافراغ البنين في احسن قالب » فكأن الرجل اذا بصر بامرأة مترجلة ادرك بالغريزة ان رجولتها تحيف على انوثتها وانها لا تليق ان تكون اماً لاولاده فنفر منها قلبه واجتواها طبعه . وقد يألف عشرتها ولكن كما يألف صديقة او صاحبة لا حليلة او حبيبة

« تنفر المرأة من الرجل المتأنث المترهل » أليس لانها تعرف بفطرتها ان استجماعه لاوصاف الانوثة منقص من أوصاف الرجولة التي تنشدها فيه ؟ فلماذا نقدم الرجل على كره هذه المرأة المترجلة كما تكره هي الرجل المتأنث ؟ ؟ وما هو الظلم الذي تشكوه منه ما دام كلاهما مسوقاً الى غاية واحدة ؟

انكم ربما وجدتم المرأة تخوض في بحار الثروة ، وتلعب

بصولجان السلطة ، وترفل في سرابيل الجاه والسمعة . فان فقدت مع هذه النعم شيئاً من شمائل المرأة التي يحبها الرجال في النساء كالملاحـة والخفر والطراءة والظرف والولادة والحب حزنت لفقدانه حزناً لا يعادله سرورها بتلك النعم الجليلة التي لا يتوق أي رجل الى أعظم منها . لان شمائل المرأة أرسخ في تكوينها وأقر لعينها من هـذه المطامع والجدود . وقـد لا يسرها أن تـكون أحسن من أحسن رجـل ان لم تكن أحسن من أحسن امرأة . بل هي متي وثقت من أنها أحسن النسـاء لم تبـال ان يرجح عليها أحقر رجل تحت السماء ـ يروي أن الملـكة اليصابات لما نقل اليها أن ملـكة ايقوسيا وضعت ولداً وسيما ؛ قالت لمن حولهـا بنغم وكمد لم تحاول أخفاءهما « ها قد أصبحت ملـكة أيقوسـيا اما ولد وسيم وانا بعد ذلك الشيء المقفر العقيم » وما أدرا كم ما اليصابات ؟ ؟ هي أذكـى الملـكات في العصور المتأخرة وأكيدهن وأرشدهن وأعرفهن بالحـكم . انتج رأسها لما عقم بطنها ونضجت فيها الملكة لما تعطلت فيها المرأة وحي

طمعها لما مات قلبها ـ فعاشت وماتت وهى تعزي نفسها بما قالته لمجلس النواب يوم اقترح عليها الزواج : حسبي أن أعيش وأموت فيكتب على قبري : «هنا مثوى اليصابات الملكة البتول» ولكنكم رأيتم كيف كانت حسرتها على البنين وهى أم السلطة والمال

تذكرنا المرأة بالمساواة الحديثة ، وقد تعني بها مساواة الانقلاب الفرنسي ـ حباً وكرامة : نحن لا ننسى مبادئ هذا الانقلاب الجليل . ولكن المرأة نسيت أن تبين لنا هل كان الانقلاب الفرنسي انقلابا اجتماعيا أم انقلابا طبيعيا ؟ وهل كانت غايته تحويل مواقف الطبقات أم نسخ خواص الاجناس والمخلوقات ؟ فأما وقد علمت وعلمنا انه انقلاب اجتماعي فحسب ، فلنعلم انها قد نالت من هذا الانقلاب ماينبغي أن تناله من المساواة حسب مركزها الاجتماعي . فمالها اليوم موفور وأمنها مضمون وحقها يصونه القانون كما يصون حقوق الرجال . أما ان الانقلاب الفرنسي يبيح لها الخروج عن جبلتها وأن لا تلد وأن لا ترضع أولادها

وأن تهجر المنازل الى الدواوين فهذا مالا يفعله هذا الانقلاب وانما هو يحتاج الى انقلاب في جسم الطبيعة بقلب عاليها سافلها والعياذ بالله ! !

معشر الاحياء

هل لكم في فكاهة أسوقها اليكم مما أحفظه من حكايات القدماء .... يحكى انه فيما سلف من الزمان وقف جماعة من أهل الفضول على ساحل البحر اللجى . والسابحون في غمرته تتقاذفهم أمواجه . وتنفغر تحت رؤسهم لجاجه . فيهوي فيها الغريق تلو الغريق ، وهم يرون الطريق الى الساحل ولا تفتح لهم الطريق. فأومأ أولئك الفضوليون بعض لبعض يقولون : الله انحن أمهر فى السباحه من هؤلاء السابحين . اذ نحن لانغرق وهم يغرقون ...... أليس هذا أيها الاخوان مثل المرأة والرجل اذ تقول له انها أصلح منه للحياة الاجتماعية لأنها أقل منه جرائم وأسلم جانبا ، فالمرأة والجرائم وقد أعفاها الرجل من مضانك الكدح وكفاها مؤنة النزول في زحام الحياة . تشاطرها ماله وجاهه وقاسمها

سعادته وصيته وهى في كسر بيتها لم تشمر معه ذيلا ولم تجرد سيفا . وهبوها كانت بحاجة الى الجرائم فمن أين لها القلب الذى به تجتري والساعد الذي به تصول ؟؟ والحق أن المرأة ليست بأسلم جانبا من الرجل كما تقول لأنها أميل منه الى الشحناء والشجار . فربما اتفق مائة رجل على الخطب المتفاقم الجسيم ولم تتفق امرأتان على الهنة الواهية الطفيفة . ولقد أغناها عن أن تكون مجرمة بنفسها أنها تجرم بيد غيرها لأن أكثر الجرائم انما يقع بسببها ولأجلها . فهي تدرك ماتشاء من الجريمة دون أن تحتمل تبعتها وقلما تقع مصيبة كارثة إلا كان وراءها وطر لامرأة تقضيه بيد المجرم بعيدة عما يتعرض له من العقاب . وهي وان كانت أقل من الرجل عيثاً واجراماً فماهى بأقل منه خطايا وآثاما . فلها من الجريمة أخس الجزئين وأضعف الجانبين ، لأنها تشارك الرجل في خبث النية ولا تشاركه في القلب الجريء واليد القوية : والرجل قد يفعل فعلته مغمض العين بباعث الغضب أو الألم فلا يهمه آلمت غيره أولم تؤلمه . مثله فى ذلك مثل

السبع الذي يوثبه الجوع الى قتل الفريسة وهو لايسيء النية بها . أما المرأة فالأيلام همها الاول والنكاية عندها غرض مطلوب لازيادة عارضة . وذلك لؤم معروف فى الضعفاء لايخجلون منه لانهم يجهلون مكانه من الفسولة والرداءة

ولقد نرى ان المرأة مابرحت أبعد عن أوضاع المدنية وفروضها من الرجل : مثال ذلك أن المرأة كما يعلم الخبيرون تؤتمن على كنتها وقد لاتؤتمن على بنتها . لانها لاتبالى من أي الرجال تلد بناتها ولكنها تبالي كل المبالاة أن تلد كنتها من غير ولدها . وذلك لان الطبيعة لاتندبها لغير انتاج الذرية سواء كان انتاجها على حكم العرف أو على ضد حكمه

ولا نتكلم عن رعاية الحدود والواجبات فقد عرف الناس أن المرأة فى ذلك كالطفل تتشبث بما تروم ، وتولع بما ترضى وتشتهى ولو كان لغيرها فيه حق مهضوم

***

وثم فكاهة أخرى أيها الرفاق مما أحفظه من حكايات القدماء . . . فقد قيل أن النبات صاح بالحيوان عام كذا

وكذا قبل ميلاد آدم عليه السلام ، فقال بصوت سمعه الثقلان : أيها الحيوان — : أنا أصح منك مزاجا وأقوم تركيباً لانى أطول أعماراً وأثبت فى الارض قدماً . فنى ما يعمر خمسة آلاف سنة وليس منك ما يناهز المائتين! : : فلم ينشب أن صاح بهما الجماد من ورائهما قائلا : بل أنا أصح من كليكما لانى أعمر أدهاراً لا تعرفون ماأوائلها وما أواخرها ، الى آخر ما قال . . . . أليست هذه أيها الرفق حكاية المرأة والرجل حين استدلت بطول العمر على صحة التركيب واستقامة المزاج ؟ : لا تنكر ان العلماء لاحظوا في الزمن الاخير ان النساء أطول أعماراً من الرجال وان الوفيات بين البنين أكثر من الوفيات بين البنات ولاحظوا أيضاً ان الاولين أنشط وأصعب مراساً من اخواتهم ، ولكنهم لم يهتدوا الى تعليل بات لهذه الحالة ؛ فنهم من علاها بأن رؤس المواليد الذكور أكبر من رؤس الاناث فلذاك كانت ولادتهم أصعب والخطر عليهم أثناء الولادة أشد . . . ومنهم من علاها بأن النساء لا

يتعرضن للمتاعب ولا يتجشمن المعاطب فلا يسرع الموت اليهن اسراعه الى الرجال . وهما تعليلان وجيهان في هاتين الحالتين أما في حالة الطفولة فلانسمع بتعليل مقنع مقبول. ولا يعجبنا رأى القائلين بأن علة الموت الكثير في البنين قلة غذائهم وانهم لا يصيبون من الغذاء ما يصيبه البنات . فاننا لا نفهم لماذا يأخذ البنون كلهم دون كفايتهم من الاكل ويستوفي البنات كلهن كفايتهن منه . أليس في المسألة سبب آخر .

نعم . سبب ذلك فيما نرى مرتبط بتفاوت سن البلوغ بين الجنسين . فالجارية تراهق قبل الغلام والمرأة تستكمل نماءها قبل الرجل لان وظائف بنيتها أقل من وظائف بنيته فهى تبلغ حدها الاوفى وهو لما يبلغه لتشعب جهات قوته واختلاف خصائص بدنه ؛ وكذلك يكتفى غذاء الطفلة لوقاية جسمها من الآفات لانه ينصرف الى جهة واحدة وهى اشباع الجسم فتكون أسرع نموا وأمنع على الادواء بنية . أما الطفل فلا يكفيه غذاؤه لان بعضه ينصرف الى اعداد

قواه العقلية والنفسية التي يتفوق بها الرجل على المرأة فيكون نصيب جسمه من غذائه وان كثر أقل من نصيب جسم الطفلة من غذائها وان قل — ويغلب ان ينصرف غذاء الطفل الى توثيق الاعصاب والعضل وينصرف غذاء الطفلة الى تربية الانسجة اللحمية واصلاح الدم ـ ولا يخفي ان النشاط والارادة من أعمال الجهاز العصبي وان الوقاية من الامراض ومقاومة جراثيمها من أعمال الدم والانسجة ـ فلا جرم كان الولد كما لاحظ أولئك العلماء أنشط وأصعب مراساً وكانت البنت أمنع بنية وأغضر جسما

وكأننا أيها الرفاق قد وصلنا من هذا التعليل الى نتيجتنا التي نكررها وندعمها : وهي ان الفرق بين الرجل والمرأة أصيل مستمر يبدأ منذ سن الطفولة الاولى . ولئن قلنا فيما مضي ان مزايا الرجل لم يظهر لها في التشريح خواص بدنية محسوسة ، فالآن يسوغ لنا أن نقول إن هذه احدي خواصها الباطنة التي تبين لنا أن الرجل يتغذى بالحزم والشجاعة ورباطة الجأش في طعامه ؛ وأن المرأة لاتكتسب

مزايا الرجولة أو تستطيع أن تهدي بنيتها الى وجوه النماء وترشد غذاءها الى مجاريه في عروقها ، وأن القدرة التى خلقت الرحم في جوف المرأة هى القدرة التى خلقت العقل والبأس في رأس الرجل ونفسه ؛ وبثت الهمة والاستعداد لعكفاح الحياة في جسمه

ولو لم نصل الى هذه النتيجة من هذا الباب لوصلنا اليها من كل باب سواه . فما نظن عاقلا يتصور أن الاختلاف بين الرجل والمرأة فى التركيب لا يستلزم اختلافا بينهما في الاستعداد من شأنه أن يفرد كلا منهما بعمل مستقل فى الهيئة الاجتماعية ـ هذا ما لا يجوز فى العقول ـ ولله در تنيسون حيث يقول : « خلق الرجل لنيران الوقائع والمرأة لنيران المواقد ، وخلق الرجل للسيف والمرأة للابرة ، وخلق الرجل برأس مدبر والمرأة بقلب عطوف ؛ وخلق الرجل للامر والمرأة للطاعة . وماعدا ذلك خبط وهراء ... »

فاذا غمت علينا أيها الرفاق مقاصد الطبيعة وتشابهت علينا الامور فلم نعرف فى حاضرنا أسائرون على صراط

الطبيعة نحن أم نا كبون عنه . فليكن لنا من حالة الرجل والمرأة مقياس لا يغلط ولا يكذب . ولننذر الامة التى لا تكون فيها المرأة مرأة والرجل رجلا بأنها ناكبة عن صراط الطبيعة السوى وأنها حقيقة بأن يحيق بها عقاب الذين ينكبون عن هذا الصراط . وهو الاضمحلال والفناء؟

***

والآن وقد فرغنا من حساب المرأة فلنرجع الى ما كنتم فيه :—

معشر الاحياء

صدق الاسد حيث يقول إن الواجب الاول والاخير على كل حى أن يكون قويا ـ فهذه حقيقة لا تتغير سواء أكان العدل هو الغالب على الدنيا أم الجور ؛ وسواء أكانت العاقبة المتقين أم للظالمين . ولو فرضنا كما يفرض الواهمون أن التقوي عمت هده البرية حتي أصبحوا لا يستحقرون ضعيفا ولا يخشى ضعيفهم قويا ، فأين من يؤامن غيره باختياره ، ممن لا يأمن على نفسه الا بعفة في غيره

وصدق القرد حيث يقول أن الاخلاق قوة فوق القوة — اذ أي شيء يغل يد القاهر المنتقم عن عدوه بعد أن تتمكن من عنقه الا قوة عليا فوق قوته الدنيا ،، أليس العفو والحلم والصبر وما شا كلها من الخصال . هي القوة التي لا يحمد على الخضوع لها الا القادرون ،، هل يوصف بالعفو والحلم الضعيف ؟، كلا ! وانما يوصف بهما القادر الذي تغلب نفسه نفسه . وأى شيء أجمل من ان يكون الانسان مزيجاً من قوتين احداهما رقيبة على الاخرى ،، فيملك قوته ولا يدعها تملكه فتسخره كالآلة الصماء ،،

وصدق الثعلب حيث يقول ان مصالحنا الخاصة أظهر لحواسنا وأقرب الى أهوائنا من المصالح العامة ، ولكننا نقول أنه حيثما وجد شيء يسمى أمة فلا بد هناك من شيء يسمى مصلحة الامة . ولعمرى كيف تقوم هذه المصلحة ان لم تقم برعاية أبناء الامة لها ،، وهل يقال أن هذه المصلحة قائمة ان كان أبناء الامة يعبثون بمصلحتها كلما عنت لهم فائدة قريبة ؟، اذن فلا علامة على وجود الامة قط وانما هم آحاد مبعثرون

وجسم مفكك لا تدب فى عروقه روح مؤلفة ولا تشده بنية موصولة ولا تعمل أعضاؤه بإرادة واحدة . وكما أن الرأس اذا أصابته ضربة مؤلمة ارتفعت اليداليه من تلقاء نفسها لتحمل عنه ألم الضربة، كذلك يجب أن تكون الامة التى تنتسبه في مجموعها مجموع أعضاء الجسم الشاعر الصحيح: يجب أن تغرس فى كل فرد من أفرادها غريزة تدعوه الى تقديم نفسه لاحتمال الاذى متى تعرضت مقاتل الامة لخطر من الاخطار ؛ ولهذا تكثر الاريحية والمفاداة بالمآرب الخاصة في الامم الحية القوية . وتكثر الخيانة والجشع وعبادة المنافع فى أيام انحلال الدول وتدهورها

إن الثعلب ينظر إلى الفرد وحده ؛ ونحن لو نظرنا مثله بهذه العين الضيقة لغبطنا الرجل على فوزه ولو وفق اليه بالاسفاف والخداع والاحتيال . ولكنا متى نظرنا بعين الامة لم نجد قط أمة تغبط أخرى على مصلحتها الضائعة بين مصالح أفرادها المتدابرة ، وحياتها التي يزهقها أبناؤها قبل أعدائها، فاذا لم نقدر على أن ننظر بهذه العين فذلك آية على موت روح

الامة فينا أو على أن الأمة قد شارفت الهلاك . وفي هذه الحالة يجوزلنا أن نسخر من الحق ونهزأ بالضمير ونتهكم على العدل ، ونقصر في الواجب ، فان الميت لا يأسى على الجراح والغريق لا يحذر البلل

وأزيد علي ماتقدم أن مبادئ الحق خالدة متجددة ، وأن المصالح بائدة متقلبة . الحق مرتبط بحياة الانسانية ، والمصلحة مرتبطة بحياة الفرد . فلو أننا أخذنا اليوم في استئصال الحق فمحونا مدلولاته من الكتب وحذفنا أسماءها من اللغات وحرمنا علي الناس تخيلها والتفوه بها لمالبثوا جيلا أو أجيالا حتي يثوبوا فيخرجوها من حيث أخرجوها أول مرة . لان الانسانية كلها لا تستغرق نفسها في حزب فذ أو عصر واحد ، ولا غنى لها عن ركن تعتصم به علي تداول الاحزاب وتقلب العصور

لا الانسانية أيها الرفاق ولا القوة نفسها تستغنى عن الحق — فاي قوة ياقوم أعظم وأرهب من القوى التي أعدتها أمم أوربا في هذه الايام ليظفر بعضها ببعض ؟ ملأت الأمم

البرور والبحار والاجواء نارا وحديداً . واستنفدت رجالها وأموالها . وتركت مضاجعها وأعمالها والتفتت الي اعداد القوة، بجمعت في حرب واحدة مالعله لم يجتمع في حروب العالم أجمع ـ ومع ذلك لم تكف أمة منها عن درء وصمة الظلم عنها . والجهر بأنها مسوقة الى الحرب على الكره منها وأنها لم تأت الا حقا ؛ ولم تعمل الا أمرا واجبا ؛ فان كان الحق وهما كما يقول الثعاب وأشياعه فما حاجة الأمم الى الاستعانة بالاوهام ؟ أليس هذا برهانا على ان القوة لاتستغنى عن مؤازرة الحق ولو بلغت غايتها ؛ وأفرغت وسعها في استتمام وسائلها ؟

نعم معشر الاحياء . أن الانسانية كلها تنصر المحق على المبطل والانسانية كلها تميل الى المظلوم وتكره المعتدي . ولسنا ننكر ان الاعجاب بالقوة كثيرا مايغطي في صدور الناس على حب الحق . ولكننا نقول انهم انما يعجبون بالقوة ريثما تأخذ حقها من العظمة ؛ ثم يكرهونها ليعجبوا بقوة أخري أحق بالعظمة منها ـ هم ينصرون القوة الحقة على القوة الكاذبة . ويكرهون

أن تخذل القوة ظلما وهي خليقة بالانتصار ؛ فلا ضير على الحق في الاعجاب بالقوة لان الحق لا يكون في جانب قوة واحده أبد الزمن — ولا تنسوا ياقوم ان الانسان قد يعجب بالقوة وهو يحبها ، وقد يعجب بها وهو يبغضها — فهو يحبها اذا اعتقد أن الحق معها ويبغضها اذا اعتقد أنها على غير حق فأي ضير على الحق في ذلك ؟ أليست القوة حقيقة بالاعجاب ؟ انه يعجب بها !! أليس الجور حقيقا بالبغض ؟ انه يبغضه !! فلا تسرعوا الى اتهام الفطرة الانسانية في ميولها فانها متى اتفقت على ميل مالم تحد فيه عن الصواب

ولا أخفى عنكم أيها الاحياء أن الحق لفظة شائعة ليس لها مفاد معين محدود . فلقد نعلم ما هو الحق في هذه المسائل الصغيرة التي يتناوبها الناس في معائشهم آنا لهذا وآنا لذاك . فأينما عرفت هذه الحقوق فيجب وجوبا لا مثنوية فيه أن تنزه عن الل والبخس ونوضع بمعزل عن المحاباة والهوادة . فانه ليس أقتل للهمم ولا أفسد للاخلاق ولا أكسد للمساعى والأعمال من شعور قوم بضياع الحق بينهم

بيد أننا قد نجهل وجوه الحق المطلق المشرف على الوجود بأجمعه . لان هذا الوجود لا يكاد يبين لنا حكمته فيما كان فكيف بما سيكون ،، وكأي من نهضة كبرى شغلت التواريخ وصعدت بأناس الى أفخم مقاوم السؤدد اذا كشفناها تكشفت عن عميم من المساوئ والاوضار . وألفيناها منطوية على كثير من الكذب والجهل والاقتسار، فاذا نحن قسناها بما نتحاكم اليه من مبادئ الحق اليومية لاحت لنا كأنها عمل باطل من البدء الى النهاية --- وما خلت قط نهضة دينية أو اجتماعية من هذه الاشياء . فكيف تكون نهضات الانسانية كلها باطلة مزيفة ؟؟ وعلام المعول اذن في الاهتداء الى هذا الحق أيها الرفاق ،،

ثم اننا نجهل الغاية من تنازع الامم . ومتى جهلنا الغاية فكيف نحكم على الواسطة ؟؟

تقول أيها الاحياء إن الوجود الذى أخفي عنا كنه أعماله لم يحرمنا من بصيص نلمح بنوره حكمته الخالدة . ونحن نعلم علم اليقين أن العقيدة هي قائدة الامم الى بلوغ

أغراضها . فما من نهضة قط قامت على غير عقيدة ثابتة فأفلحت . وحسبنا من هذا دليلا على أن العقيدة هى الابرة التي تتجه بنا الى قطب الوجود . هى الهادى الى نياته ومقاصده . فلا معول في الاهتداء الى الحق الأعلى الشامل الخالد إلا على العقيدة . فهي رائده وعليها سمة من سماته الابدية . ذنوبها مغتفرة عند أياديها وتقائصها منسية فى جنب كمالانها . على انها لاتذنب الا متى ترعزعت ولا تنقص الا اذا تشككت . أما وهى قوية مكينه فلن تراها الا وفى جوفها نار تصهر أو شاب الطبائع فتطهرها كما تصهر نار البركان أو شاب الارض فتفجرها سيلا أحمر يتأجج نارا ، ويتدفق تيارا . ويطير في الفضاء أعصارا . فلا تعرف أماء هو أم لهب ، وحديد هو أم ذهب ؛ لكنه على أى صورة قوة جارفة صادعة ، وحركة من صميم الارض ثائرة والي أعنان السماء نازعة ـ كذلك العقائد تصهر الطبائع المختلفة وتحيلها الى طبيعة مدمجة حارة ـ لا فرق بين عقيدة فى مذهب أو رجل أو وطن أودين أو أمل كبير

ولا عجب ـ والعقيدة علامة نية الوجود ـ أن لا يكون أثرها قاصراً على قوم دون قوم . ولعل الشعب الذى تظهر فيه لا يكون أوفر الشعوب قسطاً من نفعها . فهذه ألمانيا عدوة فرنسا اللدود قد انتفعت بالثورة الفرنسية أكثر مما انتفع بها الفرنسيون ، فضمت شملها وألفت وحدتها . ولولا الثورة الفرنسية لما أحست ألمانيا بحاجة الى الانضمام ، ولما صارت شيئاً مذكوراً في قليل من الاعوام . فالعقائد تجيء حيناً بعد حين الى أن تهب هبوب الصرصر العاتية فتحرك الحياة الانسانية الراكدة وتستفز العناصر العاملة في الشعوب والاقوام من كل فج عميق . وهى عناصر طبيعية كالرياح التي لا تقف في مهبها والسحاب الذى لا يهطل في مناشئه والانهار التي لا تجمد في منابعها . ولكنها تجرى حيث يجريها القدر المجهول . من وراء حجابه المسدول . وكأنه ليس على العقائد إلا أن تحرك فتأتى من العجائب بما لم يخالج أنصارها المتشيعين لها ولم يدر في حسبان أعدائها الحانقين عليها . فالانقلاب الفرنسى لم ينشر في ألمانيا

الحرية والاخاء والمساواة . وهى المبـادئ التى كان زعماء الانقلاب يرمون اليها ويعنون بنشرها ، ولـكنه نفعها من هـذه الطريق التى ما نظر اليها الفرنسيون ولا حلم بها الالمـان . وكان له في كل أمة يد خلاف يده فى سواها

إن الفـكر يقودنا الى حيث نعرف . أما العقيـدة فتقودنا الى حيث تعرف الطبيعة وهي أهـدى منا وأبصر بغاياتنا — كفالتنا ردحا من الدهر أيام كنا فى غيـابات الجهالة لا مرشد لنا الا ما تأمرنا به أو تنهانا عنه . ولا تزال تـكلأنا وترعانا كلما أضـلنا الفـكر بنوره الضعيف . وما أضل الذين يرون أن الفـكر وحده يحكم الدنيا . . . . لا أيها المفـكرون !!! الفـكر لا يحكم الدنيا ولا الانسان . . نحن بالفـكر قد نفهـم الحياة ولـكننا انمـا نحيا بالخوالج والعقائد ، وانمـا يحيا الذين خلقوا للحياة . أما الذين خلقوا للفـكر فقد يكون حظهم من فهم الحياة كبيـرا ولـكن حظهم من الحياة غير كبير . فما أخسر أمـة عندها الفـكر وليس عنـدها العقيدة !!! . . . . ما أظن فكرها هـذا

الا موديا بالرمق الباقي فيها من الحياة

وأى شئ بعيشكم أظهر ليد العقيدة في العالم ، وأبين عن كنهها المعجز العجيب ، وأنهـا لا وازع يساويها ولا باعث يفعل فعلها ؛ من هذا الاجلال المقـدس الذى يخص به الناس رسل الاديان وأصحـاب الملل دون عامـة العظماء والمشاهير ، ؛ كم خلا فى أرضنا هذه من فلاسفة مصلحين وحكماء مرشدين وعلماء محققين وشعراء مفلقين وسواس محنكين وقوادمدربين وصناع مخترعين ؟ ؛ كم خلا من أمثال هؤلاء فى الارض ثم نسيهم الناس وأذالوهم وبقى ذكر هؤلاء النفر المعدودين أسيرَ من كل ذكر يرام ؛ ومقامهم عالياً فوق كل مقام ، متفرداً فـوق رؤس الالوف من الاقوام ، الذين ما زالت تقذف بهم الارحام ، وتتلقفهـم الرجام ؛ من قديم الازل الى هذه الايام ؟ ؛ إن خلد أولئك أحقابا خـلد هؤلاء أدهاراً وآباداً ، وان ذكر أولئـك بين الدارسـين والقراء ذكر هؤلاء في الجهر والخفاء ، وظهروا فى كل أرض وسماء ، كأنهـم كواكب السماء . لا ذرية آدم وحواء . وان

قرنت أسماء أولئك بالثناء والتكريم . قرنت أسماء هؤلاء بخالق الكون القديم . كأنهم جزء من ذلك الوجود السرمدي . وكأنهم شهدوا معه خلق العالمين العلوي والسفلي ، — فهل تقول ان الفطرة الانسانية بنيت على الزيغ . وأشرجت على الزلل أم تقول خدعة صادفت غفلة كما يقول الثرثارة المتفيقهون . . . . . . يسر الله لهم الامور ما أيسر عللهم وأريح بال الباحثين معهم !!! أما نحن فنقول ان هؤلاء النفر الاعلام يتبوأون بين البشر هذا المحل الاوحد الذي لا يدانيه الملك والفتح والحكمة لانهم جاءوا الى البشر بما لم يجئهم بمثله الملوك والفاتحون والحكماء، ولان البشر أحوج الى العقيدة منهم الى ثمار الاستاذين والرؤساء ، وانهم ان كان لهم تاريخ في صحيفة الحياة فذلك تاريخ العقائد والانبياء، لا تاريخ الاقوال والآراء ، أو الوقائع والانباء . أو البخار والكهرباء

فالمرء يصغر كل عظمة في جانب عظمة النبوة لانه مدين للانبياء بيقينه وايمانه ، وما هو مدين لغيرهم من

المشاهير الا بعروضه وأمواله . ولن يستوى الايمان بالعروض والاموال . لان المرء اذا أخلص فى الايمان يفدى العقيدة بالمال ولن يفدى المال بالعقيدة ، وهو يصنع لحماية عقيدته ما ليس يصنع بعضه لحماية نفسه وولده —

انظروا الى العرب فانهم فتحوا مصر مرتين : مرة على يد الرعاة ومرة على يد المسلمين . لبثوا فى المرة الاولى ما لبثوا ثم أخرجوا منها فلم يتركوا بعدهم أثراً . واستولوا عليها في المرة الثانية فأصبح دينهم دينها ولغتهم لغتها ونخرهم نخرها وأصبح تاريخهم لا ينفصل عن تاريخها . لانهم كانوا فى المرة الاولى رواد كسب وكانوا فى المرة الثانية خدام عقيدة . فخابوا لما عملوا لمكاسبهم وأفلحوا لما عملوا لعقائدهم . وكذلك فتح العرب الدنيا يوم كانوا يذبون عن الدين وعجزوا عن منع ذمارهم يوم صاروا يذبون عن التراث والبنين

إن موسي وعيسى ومحمداً واخوانهم من الانبياء والمرسلين لم يكونوا لاعبين ولا خادعين ولا واهمين . بل

هم عاملون لا يشبههم غيرهم من العاملين . وليست نهضاتهم الخطيرة مصادفات بتراء منعزلة عن حوادث هذا الكون الواسع الكبير ، فنقول انها فلتة لا تنطبق على أحكامه ولا تدل على غاياته - وإن قيل انهم طلاب مجد وعشاق خلود ، قلنا : ولم يطلبون المجد ويعشقون الخلود ؟ ، وما الذي جعل تعشقهم للمجد والخلود يقتضي هذه النهاية في نفع الخلق واستجاشة أفئدتهم وعقولهم وأنفسهم ؟ - أمضطرون هم في ذلك أم مختارون ، وقائدون هم في فعالهم أم منقادون ؟ لا بل مضطرون لا يد لهم فيما يأخذون وفيما يتركون ، ولا اختيار لهم في خلق أنفسهم بحيث ينادون الناس فيطيعون ، وما قصدوا ما كان من آثارهم وما يكون ، ولكنها تمت وهم لا يعلمون - وكم قصد العظماء نفعاً للعالم فلم يتم ماقصدوه وتم النفع من جهات عدة لم تخطر لهم على بال ولم تقع منهم في ظن أو تقدير . بل تم من الامور بسببهم مالو فطنوا اليه قبل وقوعه وعلموا ان أعمالهم تؤدي اليه لما عملوه ، ولعملوا ما في وسعهم لاحباطه ومنعه - ريشيليو أراد أن يؤيد

الملكية في فرنسا فأسقط الملكية ـ ألا يدل ذلك وأمثاله
على أننا آلات مسيرة لقدرة لا نهائية عميقة الحب والخير؟؟
ألا يجب علينا أن نؤمن بتلك القدرة وننيب اليها ما دامت
تحيط بنا وبأغراضنا ، وما دامت تفعل من أجلنا وبأيدينا
ما لا يدور بأخلادنا ؟؟

معشر الاحياء

ان كان الاسد يقول لكم عليكم بالقوة فأنا أقول لكم
عليكم بالعقيدة لانها تقوي الضعيف وتضاعف قوة القوى ـ
وغاية الفرق بين ضعيف وقوى فيها أن الضعيف تحمله
عقيدته فلا تري فيه الا عقيدة سائرة ، وأن القوى يحمل
عقيدته فترى فيه العقيدة والمعتقد . وهى في الحالتين تخرق
العادات ، وتنجز الآيات المدهشات

فى القوة ترون العقيدة في عمر بن الخطاب وهو يحتد
فى عدله ويعدل في حدته . ويرهب النيل وما بالنيل من
رهب أو رغب ، ويعجب لموت النبي وما في الموت من
عجب . هل أطمعته العقيدة حتى بطاعة الجماد والتمرد على

الموت ، ، يقيم الحد على ولده وله مندوحة عن قتله ... الاذان بين جنود الكفر وأهله . ويهم بالخطوب الجسام فما هي الا كرجع الصوت ، ويهور الممالك بشراذم لا يملكون من أنفسهم ما ينفسونه على الموت — هذه هي العقيدة في القوة

وفي الضعف ترون العقيدة في جان دارك العذراء النحيلة وهي تزجي عسكرا وتتوج أميرا . وترونها تحت أسوار أورلنز والدمع يطفر من عينها ، والدم ينفر من عاتقها . وهي تترامي على الاسوار كان الحمام لا يجرؤ عليها أو يحقق الله وعده بانقاذ فرنسا على يديها — هذه هي العقيدة في الضعف

واعلموا أنه لا يأس من أمة ما بقي فيها استعداد للعقيدة وأنه لا أمل في أمة قد نضب فيها هذا المعين السماوي مهما أعجبتكم ظواهرها ، وغرتكم بوادرها ، فانه لا عمل بغير أمل ولا أمل بغير ايمان

واذا كان القرد يقول لكم عليكم بالحق فأنا أقول

لكم عليكم بالاعتقاد بالحق . لان أنفع ما فى الحق الغيرة عليه والسعي اليه . ولعمرى لقد أصاب القرد حين قال لكم ان حياة البرية في بقاء الحق والباطل متغالبين لافي اجتثاث الباطل وازهاقه . والا فهل حالة أشنع لو حدثت من تلك الحال التي يتمناها بعض الحالمين ؟ ، يتمنون أن لا تطلع الشمس الا على ذي حق لا ينازع فيه والا على راض لا يجد ما يشكو منه ، فان تم هذا ـ ولن يتم ـ فأين يكون تنافس الاقوياء واقدامهم ، وأين تكون خشية الضعفاء وتآزرهم ، بل أين يكون الحق نفسه ؟ ، هل علم أحد منكم لنفسه حقا موقوفا عليه متصلا بكيانه يقول هذا حقي كما يقول هذا رأسى وهذه يدى ؟ ، انما الحق ما يخلص من هذه المنازعات والاطوار ويحصل من اختلاف نظر الناس اليه وتعدد مناحيه . فلا حق الا بالنزاع على الحق . وزوال النزاع موت . وزوال الحق باطل ومحال .

والحق يكون معكم مرة وعليكم مرة فاذا أردتم أن تعرفوا في أي جانب هو فانظروا الى جانب العقيدة فثم

الحق الاكبر المنشود

*
* *

عندئذ قال الذئب : وما مرادك بهذا الكلام أيها الانسان ؟ أتريد أن يصر كل منا على عادته ويؤمن بما هو في صدده ؟ ان كان هذا مرادك فهذه يدي فاني أول المشايعين لك

قال الانسان : لا بل أردت أن تؤمنوا بي وتركنوا اليّ . لاني — ولا أزدهى عليكم — قد جمعت من دواعي الايمان ما تفرق فيكم . وقد زدت عليكم بأشياء لم يتحل بها أحد منكم . ومتى آمنتم بي كنت معكم على حد قول المتنبي لاسد قنسرين

فهل لك فى حلفى علي ما أريده فاني بأسباب المعيشة أعلم
اذن لاتاك الرزق من كل وجهة وأثريت مما تغنمين وأغنم

قال الذئب : أى نعم ! كما أثريت الكلاب من فضلات موائدك ، وأطعمتها من عظام البهائم الآوية اليك . فجعلت

الـكلب ـ وهو واحد منا ـ يعبدك ويحرس نومتك ويرعى ماشيتك ويعادي بني جنسه في خدمتك !

قال الحمار : مهـلا أيها الذئب فانا راضون بان نؤمن بالانسان ولـكن على شرط أن نحرق الاكُفُ والمناخيس في مجلسنا هذا

قال الحصان : والسروج والمركبات والطواحين !

فقالت البقر والغنم والماعز بصوت واحـد : وأن نكتب كتابا بمنع شرب الالبان وتحريم ذبح الانعام والماشية

فاشـتد اللغط بين الاوز والدجاج وصاحت من كل جانب : وذبح الاطيار الداجنة أيضاً

وزمجر النمر قائلا : وقبـل ذلك أبيـدوا الراميات والرصاص والمفرقعات فلا تبقى منها باقية

ومضى كل منهم يعرض اقتراحاً ، أو يزيد شرطاً . حتى نفد صبر الانسان فقال غاضباً : وهل يقال أيها البهائم انكم تؤمنون بي وأنتم تقيدونني بهذه الشروط ، وتجعلونني آلة

بين أيديكم ؟ ؟ أم حسبتم انني لا أنال منكم قسرا ما أعرضه الآن عليكم عرضاً

وكأنما كانت هذه الكلمة جذوة نار ألقاها الانسان في تلك الغاب ، فقد أحدثت فيها ما يحدثه الحريق من الهياج والاضطراب فأخذتهم سورة الوحشية ؛ وهجم بعضهم علي الانسان فذادهم بعضهم عنه . وهو واقف بينهم نادماً على تلك الكلمة ؛ ولو أمعن في قلبه لوجد فيه بعض السرور من تلك النكسة التي كادت تفقدهم المنطق العارية الذي سمحت لهم به الحياة فضارعوه فترة من الزمان

* * *

وبينما هم كذلك اذ ارتفعت من نواحي الافق قطعة سحاب كطلائع الخيل ما زالت تكبر وتنتشر حتي سدت الآفاق وأطبقت الارض والسماء ، فاربد الجو وقصفت الرعود وانقضت الصواعق وانهمرت الامطار . وظل جمع الغاب فى عمياء من أمرهم لا يعرفون قبيلا من دبير ، وقد شغلهم هول ما هم فيه عن التفكر فى المصير . ثم سمعوا

مناديا يناديهم بصوت كأن هزيم الرعود معه أخفت من ديبب النمال ؛ وأهدأ من نسيم الشمال . قائلا :

اخشعوا للطبيعة يا أبناء الحياة الغرور ؛ ! أنصتوا للدوام يا أسراء الفناء والدثور ؛

نخشعوا واجفة قلوبهم ، راجفة من الهلع فرائصهم . ثم التفتوا فانقشعت هذه الغمة عن شخص هائل رأسه فوق النجوم ، وقدماه تحت الثري . مهيب ولكنه مودود ، وعجيب ولكنه معهود . وهو من ثم قطوب كالجبل الأغبر ومن ثم بشوش كالربيع الاخضر . فألهموا انه روح الطبيعة. وكان في تلك اللحظة يهدر بصوت لم تستقل بسماعه الآذان دون سائر جوارح الابدان

خطاب الطبيعة

أيها الاحياء

لا أطلب اليكم أن تصيخوا الىّ فان في كل دقيقة من دقائق أجسامكم أذنا تسمعنى فى كل حين . غير انها قد تغفل عنى أحيانا فيبلغها صوتي منحرفاً عن الحقيقة، مزيفا بضلال الصناعة . فالآن أنفى عن آذانكم كلها هذا الوسواس لتسمعونى حق السماع ، وتنبذوا ما سمعتم من سواى كل النبذ

أنت أيتها الحياة : تخضت عنك وما تركتك لنفسك لمحة عين . فما زلت عمياء حتى في طلب الخلاص من الموت. ولأنت أقرب ما تكونين اليه حين تفكرين في الخلاص منه . ولقد ظننت انك أعرف منى بما يسعدك ومايشقيك. فعكفت على الصخب ؛ ودأبت فى الهرب ، وعكست الامر فأشقيت نفسك من حيث تلتمسين السعادة ،

وجاءتك السعادة من حيث تخافين الشقاوة ، ولا أذكرك الا بانك وليدتي وانى أنا أمك . أعلم من شأنك ما لا تعلمين ، وقد كنت ولم تكونى وأكون حيث لا تكونين . وأنا أحرص عليك منك ، وان زعمت انك أخبر منى بنفسك ، فما من صلبك ولدت بل أنا الوالدة ، وما من جسدك تأكلين ولكنى أنا المأكولة الآكلة — أنا التى أصوغ من الصعيد الخانق والماء الجارى ، ومن الهواء الخافق والضياء السارى ، عجينا منه تنشأين ، ثم منه تستمدين ، تتناولينه جماداً جاسياً ثم تجرينه فى باطنك احساسا مدركا واعياً . ولو سألت كل ذرة فيك أن ترجع الى موضعها منى لما بقى فيك الا مكانك ، ولضاع منك احساسك وعلمك وبيانك ، فمن جسدى كيانك ، ومن جسدى قوامك ، والي جسدى مرجعك ومآبك . فكيف اذن تختارين لنفسك مالست اختاره لك . ومن لك بمحاربة الموت وهو قضاء حتم عليك

اعلمى ياحياة انك لا تخافين الموت الا لانك تمشين فى انفاقه معصوبة العينين ، ولو كان لك اطمئنان الوليدة الى أمها

لتأكدت انك ناجيــة مادمت في يدى . ألما تعلمى انني أمر بك من انفاق الموت الى ضياء أسطع من الضياء الذي كنت فيه ؟ ؟ فانظري أين أمسك من يومك ، وأين الجسم السوي من المضغة القذرة ؟ ؟

تشفقين ياحياة ان يلم الموت بمضغة ترمزين فيهـا لمحة من الوقت ولو انهـا نقطة من تلك النقاط الزلاليـة التي لا يميزها الناظر من نقاط المـاء — وجهلت اننا لو جاريناك على هـذا الاشفاق لـكانت تلك النقاط عُليا ماتسمنته من درجات التكوين ، ولخسرت الوجود برمته وأنت تتمسكين بالوجود . فكانت كواكب السموات وكنوز الارضين وأسرار الخليقة وودائع المعرفة كأنها لم تخلق ، وكأنه لم ينشق عنها العدم المطلق ، وهي هى التى تجلسين اليوم فى سويدائها . ويمر بك الموت فى سراديبه الى دارةٍ دارةٍ من سبحات أضوائها

أنظري آلاء الموت عليك

قالت الطبيعة ذلك ثم نادت . . . ياموت ! ! فانطلق من يسارها شبح بغيض شملتنا رؤيتـه بقشعريرة باردة . وامتلأت الحياة ذعرا وهى تصارع ذلك الشبح ويصارعها وما استطال هذا الصراع حتى غشيتنا الغاشية مدة لا ندرى مامقدارها ، ثم صاحت بنا الطبيعة فانتبهنا . فاذا نحن خلق آخر واذا الحياة امامنا أبهى مما كانت وأعدل قواماً وأحب منظراً وأذكى عرفاً وأنبل طلعة . ثم قالت الطبيعة تخاطبنا :

أما وقـد شاهدتم أيهـا الملأ كيف ان الموت ينقلـكم من طور الى طور اكمل ، ومن هيئة الى هيئة أجمل ، فاعلموا كملـكم الله — ان الـكمال غايتكم في الحياة وليس البقاء . فلا تخافوا الموت بل خافوا النقص فهو أعدى لـكم من الموت ولا تسمعوا صوت الحياة بل اسمعوا صوت الطبيعة فهى أبرّ بكم من الحياة

*
* *

فما كادت تلفظ الـكلمة الأخيرة حتى وثب الأسـد على الثور وقبض النمر على الأيل وعدا الثعلب وراء الارنب

ووجأ الذئب عنق الشاة والتهم الهر الفأر وجذب الانسان سلاحه يضرب ذات اليمين وذات الشمال والقدر يضحك والحياة تصرخ . وكلهم ذاهبون على رؤوسهم يصيحون : اسمعوا صوت الطبيعة ؟ اسمعوا صوت الطبيعة ؟ ؟

تم

الخطأ والصواب

(سقطت بعض حروف فى الجمع ووقعت غلطات مطبعية قليلة ننبه اليها ليستدركها القراء)

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٠	٤	تتقاوت	تتفاوت
١٠	٥	ومز'ياها	ومزاياها
١١	١٣	تثبت	تثب
١٥	١٤	وكلاهما الفناء	وكلاهما نذير الفناء

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٩	١٠	فاذ	فأذا
٢٢	٧	جمعكم	أجمعكم
٢٢	٩	لتى	التي
٢٢	١٠	أيتمنى	يتمنى
٢٢	١٣	يكم	اليكم
٢٨	٤	بث	بالخبث
٢٨	٥	يفعل	فليفعل
٢٨	١١	رغتم	رغبتم
٣٢	٤	أيكتمانها	لتكتمانها
٣٥	٢	فكأنكما	فكأنكم